الدكتورة بنت الشاطئ

صور من حياتهن



صور من حياتهن

الدكتورة بنت الشاطئ

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى فبراير ١٩٥٩

هذه الصور!

ما من صورة رسمها قلمى فى هذا الكتاب ، الا نقلتها عن الواقع الذى عشنا فيه نحن بنات هذا الجيل الذى شهد أعنف انقلاب اجتماعى عرفه الشرق فى تاريخه الطويل ..

وقد كان جيل ضحايا شهيدات ، كتب عليه أن يعبر الصراط الرهيب ما بين ظلمات الحريم الى آفاق الحرية والنور ، تاركا فى كل خطوة ، أشلاء شهيدة تعثرت خطواتها فوق المعبر الضيق ، أو أعشى الضوء المباغت عينيها فضلت السبيل ...

وكذلك كان جيل حيرة :

حيرة بين ميراث محتكم ، من أمهات ينتمين الى صميم عصر مضى ، وبين هـذا الجديد الطارىء الذى تبلوه حواء الشرق لأول مرة .

وما هنا ، ليس الا صوراً لبعض أولئك الشـهيدات ، فى تجربتهن العنيفة ومعاناتهن المرهقة وحيرتهن المضنية ، رأيت من واجبى أن أسجلها لكى يعلم الشرق العربى أى ثمن فادح دفعنه

أنثاه فى هذا الجيل ، كيما تحقق له ذلك التطور الباهر الذى كسبه بتحرير المرأة .

وأسجلها ، ثانيا ، لكى تقرأها بناتنـا اللواتى يتبعن خطانا ويمشين على أثرنا ، لعلها تجنبهن عثرة السير ، وضلال الطريق ، ومخاطر الرحلة ..

وأسجلها ، ثالثا ، لأنهـا تمثل حقبة حاسـمة من التاريخ الاجتماعى لهذا الشرق ، ما كان يجوز أن تمضى دون أن يلتفت اليها الأدب ، ودون أن ينفعل بها ويشارك فى فهمها وتفسيرها ، مشاركة وجدانية تجعله جديرا بالحياة ...

* * *

واذا كان الأدباء الرجال قد مروا بهذه التجربة من غير أن يلتفتوا اليها أو يحفلوا بها ، فنحن الأديبات أولى بأن نؤدى فى هذا المجال أمانة القلم ، لأنها تجربتنا الذاتية الخاصة ، عشناها بأعصابنا ووجداننا وعقولنا ، وكان منا ضحاياها الشهيدات !

ولم يغب عنى ما قد يلحظه قارىء ناقد ، من غلبـة الطابع الحزين على هذه الصور ، وازدحامها بالفواجع ، وما قد يأخذه عليها من ضعف الأنوثة فيها وعجزها ، ذلك الضعف الذى يجعلها فى أغلب المواقف ، تستسلم للمصير دون مقاومة مجدية تثبت بها وعيها لوجودها وشعورها بذاتها ، وعذرى أنها كانت هكذا فى

دنيا الواقع ، ولم أشأ لقلمى أن يشارك فى تأليف هذه الصورة أو تهذيبها ، بل كان جهدى أن أؤديها كما هى ، مقدرة خطر الأمانة فى تسجيل حياتهن فى جيل الطليعة ومرحلة التطور ، بما أرهقهن من حيرة وقلق وتناقض ، وبما آدهن من تعثر واضطراب ، وهن يواجهن الأضواء الساطعة بغتة ، ويمارسن حياتهن الجديدة بنفوس محجبة ، لم تتخلص تماما من فطرة حواء وميراث الأمهات!

ولم يفتنى أيضا ، أن فى بعض هذه الصور ملامح متشابهة ، قد يضجر بها ناقد ويسجل عليها شائبة التكرار ، الا أن يفسرها بانتماء صاحبات هذه الصور الى جيل معين ، ومعاناتهن لتجربة متشابهة ، فى ظروف توشك أن تكون متماثلة ، فلا عجب أن جاءت صورهن وفيها عنصر مشترك ، تأبى واقعيتها أن أتجاهله أو أتكلف اهداره !

* * *

وأود آخر الأمر أن أعتذر لهؤلاء الأخوات الزميلات اللواتى رسمت صورهن هنا ، فلست بحيث أجهل ما يشعرن به من ضيق وحرج ، وهن يرين جراحهن معروضة على أعين الناس ، ويقرأن أسرارهن الخاصة مذاعة فى كتاب منشور ! ولقد حاولت ما وسعنى الجهد أن أنكّر بعض الأسماء وأخفى بعض الملامح ، لأخفف من وقر ذلك الحرج ، لكنها محاولة هيهات أن تفلح فى اخفاء معالم

الشخصية عن صاحبة الصورة ، وعمن يعرفنها من قرب أو بعد .

ولا أجد ما أعتذر به هنا ، سوى ايمانى بأن تجربة هؤلاء الشهيدات ، بكل عثراتها وأخطائها ، وبكل نبلها وفدائيتها ، قد جاوزت نطاق الشئون الخاصة والأحوال الشخصية ، وصارت تراثا قوميا من حق الجماعة ، وأمانة صعبة ، لا أستبيح لنفسى التخلف عن أدائها ..

وانى لأحتسب منذ الآن ، عند الانسانية والوطن ، ما أشعر وتشعر به زميلاتى من ألم أو حرج لاذاعة هذه الصور ، وما قد أتعرض له من ملامة وسخط وغضب ، وأضيف هـذا كله الى ما دفعنا وندفع فى حركة التطور ، وما أدينا ونؤدى ، لكى نهيىء لبناتنا حياة أسعد من حياتنا ، وأوفر طمأنينة وسلاما .

بنت الشاطىء

مصر الجديدة
نوفمبر ١٩٥٨

ضريبة الحياة

« ذكرى أول زميلة صديقة عرفتها فى المدينة ، ووقفت أرقبها فى ذعر وهى تدفع ضريبة الحياة رهيبة فادحة ، حتى اذا لم يبق لديها ما تدفعه ، نامت وتركتنى من بعدها مسهدة لا أنام ! » .

كان أول عهدى بها يوم نزحتُ الى المدينة أطلب العلم ، وكانت تشتغل بالتدريس فى المعهد الذى تقرر أن أعمل فيه ريثما أستكمل دراستى العالية ، وهو معهد راق خصص لفتيات الطبقة التى تكره لبناتها أن يُشغلن بدراسة تُعدّ للاحتراف .

جاءت الى غرفتى فى جمع من رفيقـاتها يرحبن « بالزميلة الجديدة » فلما طالعتُهن بثيابى الريفية ومظهرى القروى الساذج ، نظر بعضهن الى بعض فى سخرية مكبوتة ، ثم مضين عنى يتضاحكن ، وتخلفت « زينب » عنهن وقد بدا عليها أنها تتألم لما بدر منهن . ودنت منى تسألنى فى رفق ان كنت قد مررت بالعاصمة قبل اليوم ، فلم أجبها ونظرت الى الأفق البعيد ألتمس وراءه بلدتى الحبيبة التى شيعتنى فى حزن وأسى ، وقد أحسست شيئا من الشـجو والاطمئنـان حين نأى بى ذهولى عن المكان الفخـم ، الذى نزلت فيه ، فرجعت أخطر بين صواحبى ، وهن يرمقن الثيـاب التى أعدت لرحلتى فى كثير من الدهشة والاكبار ويحدقن مبهورات فى مشط « الماس » الذى يتوج شعرى والأساور الذهبية التى تزين معصمى ، ويلمسن بأيديهن ، المعطف الوردى الذى حاكته لى أمى من المخمل الغالى .

ولازمتنى « زينب » فى تلك الغمرة الأولى ، وكنت أضجر بصحبتها أول الأمر لأننى كرهت أن أعرى جراحى أمامها وأشفقت أن تشهد النضال المر الذى كابدته وأنا أطوى فى أعماق نفسى ،

شخصيتى البسيطة المألوفة ، وأنزع عنى ثيابها ، ثم أرتدى الأقنعة التى تقدمها المدينة للنازحين اليها من أبناء الريف .

ولأمر ما ، احتملت « زينب » اعراضى فى كثير من الدعة والرضى ، على أنى ما لبثت أن ارتحت اليها وألفت صحبتها ، اذ حببها الىّ أنها رأتنى قبل أن أتنكر فى زيى المستحدث ، فعندها وحدها ألتمس صورتى الأولى ، واليها وحدها أستطيع أن أتحدث عن « القروية العزيزة » التى طويتها كارهة ، وأخفيتها وراء القناع!

* * *

ونشأت بيننا ألفة قوية أوثقت الأيام عراها ، لقد كانت « زينب » غريبة مثلى : نشأت فى بلدة من اقليم البحيرة ، من أسرة كريمة متواضعة ، لم تبل الحياة العصرية ولم تتعرض لأضوائها ، وكان أبوها الشيخ يتردد على العاصمة فى شئون تجارته ، فصحبته ذات يوم حين رأت أفواج الفتيات يخرجن من دورهن ويندفعن الى المدارس مفتونات ، وكانت المدارس فى ذلك العهد تنادى هؤلاء الفتيات الغريرات نداء حافلا بالاغراء ، فاذا لبين النداء غلّقت من ورائهن الأبواب ، وأخذت تعهدا كتابيا على أولياء أمورهن يلزمهن باحتراف التدريس اجباريا لبضع سنين ، فمن أبت منهن ذلك دفعت للحكومة بضع مئات من الجنيهات .

وكانت « زينب » طفلة غريرة حين أعد لها هذا القيد ، فلم تحفل بأمره كثيرا ، على أنها أحست وطأته يوم أرادت أن تنحرف عن هذا الطريق الذى دفعت اليه كرها ، وتعود الى بيتها . وكان

الاحتراف على عهدها أمرا بغيضا تنكره كل أسرة كريمة قادرة على رعاية بناتها والانفاق عليهن . وانما تعلمت « زينب » استجابة لحركة التطور ، ورغبة فى أن يرتفع سعرها فى سوق الأزواج . وقد ارتفع فعلا ، وتقدم لخطبتها مهندس شاب رحب به قومها ورأوه كفئا لها . لكن الطريق سدت عليها وأجبرت على احتراف مهنة التعليم راضية أو كارهة وهكذا ضاعت فرصتها الأولى ..

* * *

لم تجزع « زينب » لما حدث ، اذ كانت لاتزال بعد فى مستهل شبابها وزهوة صباها ، وقد بدت حياة العمل لعينيها طريفة شيقة، وكانت معذورة فى هذا الذى وهمت ، فقد جن جنون الناس من حولها بهذا البدع الجديد ، واستحدثت فى لغة الحياة على عهدها ألفاظ ضخمة مبهمة عن الاستعباد والثورة والحرية والمساواة ، ودوت فى أفق الوادى صيحات عاليات ، تحدث فتاة الجيل عن حقها فى حياة حديثة ، غير الحياة التى قنعت بها أمها وجدتها من قبل ، وصار همّ المرأة الجديدة وفخرها ، أن تبرأ من شوائب ضعف الأنثى وتتشبه بالرجال .

وقد سمعت « زينب » ذلك كله ، وفتنت به ، واستجابت له ، فلم تضق بالقيد الرسمى الذى يحرم عليها الزواج ويجبرها على الاحتراف واستقبلت حياتها الجديدة راضية .

* * *

ودارت عجلة الأيام ، وطوى الزمان فى جوفه عشرة أعوام ،

أمضتها زينب فى حياة رتيبة مملة ، ترى كل عام وجوها جديدة ، ولكنها أبدا وجوه معلمات وتلميذات ، وتنقل كل عام الى مدرسة جديدة ، ولكنها أبدا حجرات الدراسة وعنابر النوم وقاعات الطعام ومكتب المعلمات ! تمضى يومها فى شرح الدروس ومراقبة التلميذات فى فترات الاستراحة حتى اذا حان المساء أوت الى فراشها كليلة متعبة وعلى شعرها ووجهها غبار أبيض من ذرات الطباشير المتناثرة ، وفى يديها آثار من المداد الأحمر ، وعلى ثيابها بقع من المداد الأزرق ، وفوق كاهلها حمل ثقيل من كراسات التلميذات !!

لقد ذهبت الأيام الأولى بطرافة العمل ، ولذة الكفاح ، وخلفت لها السآمة والضجر والملال ، وأشاعت فى جوها ظلالا كثيفة من الكآبة والهمود والاعياء .

* * *

ولعلها كانت قادرة على احتمال مشقة العمل ، لو أعفيت من عنت الناظرات وكيد الزميلات : كان ضجرهن بالعمل ، مع اضطرارهن اليه وارتباطهن به ، يذهب برقة أنوثتهن ويفسد أعصابهن ، وكلما تقدم بهن العمر ، وتضاءل أملهن فى الظفر بحقهن الفطرى فى الأمومة ، زدن شراسة وخبالا ، ولم يكن لهن سبيل الى الانتقام من المجتمع الذى غرر بهن . فكن يشتفين بالكيد لزميلاتهن ، يهدئن بذلك نار الحقد التى تأكل صدورهن ، كما أكلت الأيام شبابهن .

ولقد قاست « زينب » الهول من ذلك وأحست صدرها يضيق ويختنق ، لكنها لم تجد سبيلا الى الفرار . انها دفعت للحكومة الضريبة المقررة من سنوات شبابها فلا غرم عليها أن اعتزلت العمل، ولكن العرف السائد كان يقتضى عليها أن تبقى عاملة حتى تتزوج ، وهكذا حكم عليها أن تظل فى هذا الجو الخانق الى أن تسعفها نجدة من السماء فتسوق اليها ابن الحلال الذى ينقذها ويمضى بها الى « البيت » .

وتشبثت « زينب » بأملها فى تلك النجدة ، وغذته بما أبقت الحياة المتعبة من شبابها الهزيل ، ولكن الأمل أخذ يتضاءل رويدا رويدا ، كما أخذت شعلة الحياة فيها تخبو شيئا فشيئا ، وهى تحس ذلك وتدركه وتموت به موتا بطيئا .

حتى افتقدت نفسها يوما فاذا بها قد أضاعتها : جف ماء الحياة منها ، وذبلت نضرة شبابها ، وكلّ بصرها ، وعاجلتها شيخوخة مبكرة ، قبل أن تكمل الثلاثين من عمرها .

كانت تحن بفطرتها الى البيت ، وتشتاق الى الأمومة ، فلما رأت شبابها يوأد وحياتها تنهار ، ثارت ثائرتها ، وعبأت كل قواها لتحارب الموت فى نفسها .

لكن الداء كان قد تمكن منها فجن بأسها ، واندفعت فى نوبة من الحقد والمرارة ، تمقت الناس والدنيا ولا تحتمل رؤية تلميذاتها الصغيرات لأنهن ينكأن فيها جراحا تريد أن يضمدها اليأس ، ويهجن أشواقها الخامدة المكبوتة الى الأمومة .

وكانت « زينب » تنكر من نفسها هذا الانهيار التعس وتقارن بين أمسها ويومها فيدركها الرعب والاشمئزاز ، وشهدتها الليالى الطويلات محزونة مسهدة ، تبكى تلك الأنثى الطيبة الوديعة التى تحتضر فيها .

* * *

وفى هذه الفترة من حياتها عرفتها .. ولمحت عليها ظلال الألم الدفين والأمل الخابى وآثار المعركة القاسية ، وقد أنكرتها أول الأمر وأوجست منها خيفة ، ولكنها تشبثت بى فى الحاح غريب ، وما زالت بى حتى ألفتها ثم أحببتها .

لقد رأت فى وجهى صورة ماضيها الذى ولى وراح فتعلقت بى تلتمس النجاة من حاضرها الشقى التعس . وكان ظهورى فى أفقها منبها لفطرتها النائمة . فقامت تحارب الخبال الذى خالطها ، والشيطان الذى حل فيها .

وجمعنا الجهاد المشترك .

كانت كلتانا تناضل من أجل فطرتها ، وكل الفرق بيننا أنها تحارب لتسترد ما أضاعت ، على حين أحارب لأحتفظ بما لم أضع بعد .

وأعانت كل منا صاحبتها على الجهاد ..

فقد كان وجودى الى جانبها يستثير قواها ، ويثير شوقها الى ماضيها ، وكان وجودها الى جانبى ، يحذرنى من مصيرها ويزيدنى حرصا على سلامة فطرتى .

وبذلت « زينب » نفسها للمعركة وأيدتها السماء فى جهادها الرائع ، فبرئت من الشر والحقد ، وحملت حطام حياتها المنهارة فى صبر ووداعة وألم نبيل ، ثم استأنفت العمل ووجهها يشرق بنور الايمان .

* * *

ثم كانت المعجزة :

عاد ابن عم لها كان يدرس الطب فى الخارج . وقد استهوته « زينب » فى رقتها وضعفها ووداعتها ، وفتنه ذلك النور الشاحب الحزين الذى يشع من وجهها فيخدر أعصابه ويغمره بالأمن والسلام . وكانت حياته فى أوربا قد زهدته فى الصخب والضجيج وجعلته مشوقا الى الدعة والاستقرار . وتطوع الملأ من حوله لخدمته وتبرعوا بالنصح له فأنكروا عليه أن يرضى بهذه «العانس» المعلمة وأمامه زهرات الطبقة الراقية يقدمن اليه الصبا والغنى والجمال ، ويعدنه بالرقى السريع ، لكن « أحمد » تشبث بفتاته وأبقى عليها . لم يكن يجهل أنها جاوزت فجر الشباب . لكنه وجد فى ذلك ما يروى ظمأه الى « الأم » .

وكانت أمه قد تركته صبيا بعد موت أبيه ، ومضت تستأنف حياة جديدة مع زوج جديد .

ورعته أم « زينب » واحتضنته فى صباه ، وبذلت له الحنان محضا صافيا ، لكنها عجزت أن ترضى طفولته المحرومة ، فلم يكد يبلغ مبلغ الشباب حتى هجر وطنه ونزح الى الغرب ينسى فى ضجيجه همومه وأحزانه .

* * *

دخل الحب حياة « زينب » فبدلها خلقا جديدا : أودع عينيها التائهتين بريقا عجيبا يتألق بحيويتها الطارئة ، ومس شفتيها الذابلتين فرد اليهما النضرة والحياة ، ومسح على وجهها الشاحب فأعاد اليه النور والاشراق ، وتسلل الى روحها فأزال عنها ركام الجمود والموت ، ثم بعث الأمل يغزو قلبها ويطرد منه اليأس والظلام . وراحت « زينب » تهيىء عشها والدنيا لاتسعها : دعت اليه أحلامها المشردة وأمانيها الخابيات ، وأنشأت تبنيه بأعصابها ودمها وقلبها ، حتى اذا أتمت بناءه نظرت اليه فتألقت فى عينيها دموع الفرح والغبطة ، ثم وقفت على بابه تنتظر ، وقد غفرت للزمن ما عانت من تشرد وضلال ، وما ذاقت من مرارة الحرمان .

* * *

وفجأة ظهرت « أم أحمد » فى الأفق : كانت مريضة تحتضر ، وقد بعثت الى ولدها لتملأ منه عينيها قبل أن يغلقهما الموت ، وتسمع كلمة المغفرة قبل أن تبرح الدنيا وتمضى الى وادى العدم .

فلبى « أحمد » نداءها وخف اليها مستجيبا جزعا ، فلم تكد تراه حتى أجهشت بالبكاء ثم أوت الى صدره وهى تنتفض من فرط الفرح والانفعال .

ولم تكن بحاجة الى أن تستغفر : لقد غفر لها قبل أن تسأله المغفرة ، وكان شفيعها عنده ، الموت الماثل ، والأمومة المحرومة .

وكأنما أمسكها ولدها الى الحياة ، فبدأت تناضل لتبقى ، وهو الى جانبها يبذل لها من علمه وفنه وبره ما يعينها على النضال .

وجاءها يسعى ذات يوم ، مشرق الوجه متهلل الأسارير ، كانت قد اشتهت أن ترى عروسه لتباركها ، وها هى ذى الى جانبه ، فى جلوة عرسها ، تضحك للدنيا وتبتسم للحياة ...

وتريثا قليلا لدى الباب ، فلما أحست المريضة بهما دبت فى كيانها الذاوى قوة طارئة فتماسكت ونهضت من نومها وأشرق وجهها الشاحب بابتسامة عريضة هانئة .

لكنها لم تكد ترى « زينب » وتسمع اسمها ، حتى انقبضت أساريرها بغتة ، ثم تهالكت فى فراشها وهى تردد فى استسلام يائس حزين :

— غفرانك يابنى ! انها أختك ، أرضعتها من ثديى هذين أياما ثلاثة كاملة حين مات خالها .

وذاب صوتها فى حشرجة الموت .

وأصبح الصبح فاذا بأيدى الزمان قد مزقت الشمل وخنقت الأمل ، وهدمت العش وبعثرت أنقاضه مع الريح .

لقد كان كل ما ذكرته الأم المحتضرة صحيحا واقعا شهدت به أم « زينب » وأيدته الأسرة جميعا :

حدثوا أن فاجعة ألمت بالبيت و « زينب » فى المهد : غرق خالها فى اليم ، فى أصيل يوم من أيام العيد ، فعبث الحزن بأخته حتى أشفقوا على صغيرتها ، وبعثوا بها الى زوجة عمها ترضعها وترعاها ريثما تنكشف الغمة ، وكانت هذه الزوجة حديثة عهد بالوضع ، فأعفاها ذلك من شهود المأتم الفاجع .

وانفض المأتم ، وعادت « زينب » الى أحضان أمها ولا يكاد أحد يعى ما حدث لها ، اللهم الا زوجة العم ، وقد مضت هـذه الى بيت جديد وأسرة بعيدة ، ونسى الذى كان ..

* * *

غادر « أحمد » اقليم البحيرة ، ومضى على عجل الى أقصى الصعيد ، كأنما يفر من شـبح يطارده ، وعادت « زينب » الى المدرسة والكراسات والتلميذات والزميلات . عادت هزيلة شاحبة، كسيرة القلب بادية القنوط فاستقبلتها زميلاتها بمواسـاة تشى بسخرية واشتفاء ، فوثبت الى جانبها وسألتها أن تمضى معى الى غرفتها لتستريح ..

وقد أسلمت « زينب » نفسها ليدى ، وراحت معى تجر قدميها جرا ، حتى انتهت الى فراشها ، منهوكة تنشج نشيجا أليما ، خفت أن يمزقها ، ثم هدأت بعد حين هدوءا موجعا يشبه الموت .

ولم يبق لها من علامات الحياة الا عينان تحدقان فى غير شىء وترسلان نظرات تائهة خرساء ، وبدا عليها أن شيئا فيها قد مات ، فكانت تمضى ساعات طويلة جامدة صامتة ، كأنها جثة ، وعافت الطعام الا قليلا ، وأمسى نومها نوعا من الهمود المتعب المريض ..

* * *

وجدّت فى حياتها بعد ذلك أحداث قاسيات : ماتت أخت لها شابة بحمى التيفود . ولحق بها أبوها الشيخ بعد أشهر معدودات ، فظننت أن تلك اللطمة جديرة بأن تنبهها وتمسك عليها الحياة .

كانت لا تفتأ تسألنى كل يوم : فيم العيش وقد انطفأت الحياة فىّ ؟! فلم أكن أدرى بم أجيب ، حتى اذا غال القـدر أختها وأباها ، عرفت كيف أجيب : كان على « زينب » أن تعيش من أجل أمها الثكلى واخوتها اليتامى الصغار ..

وسعينا لها عند أولى الأمر فى وزارة المعارف فنقلت الى بلدتها لتسكن الى من بقى من أهلها وتنهض بعبئها الجديد ..

وقد صحبتها الى هناك وبقيت معها يوما وبعض يوم ، ثم تركتها وفى وهمى أنها قادرة على احتمال محنتها الكافرة ..

وتناءت بيننا الديار . وتراخى العهد ، وأمست زينب ذكرى حزينة شاحبة تلم بى من حين الى حين ، فأكتب اليها دون أن أنتظر لجوابى ردا ..

* * *

حتى روعت ذات صباح بنعى « زينب » .

نعتها الى « الأهرام » وأنا فى طريقى الى القرية فى مشرق يوم عرفات ، فكانت مباغتة أليمة مزقت قلبى وغلبت صبرى .

ولم أكن أعلم أنها أصيبت آخر العمر بشلل نصفى أمسكها الى الفراش شهرا كاملا ثم أدركتها رحمة الله ، فأبرأتها من جراح الحياة ..

وسألتنى الزميلات : ألا تعزين فى « زينب » ؟

قلت : كلا ، فقد فات أوان العزاء . انها ماتت من زمن بعيد ، وبقيت جثتها أمامى تتحرك فى عالمها المنهار ، حتى سكنت أخيرا وظفرت بالراحة الكبرى ..

أين المفر ؟



((كانت مشدودة الى مصيرها بحبل خفى ، تحس قبضته القاسية فى رسغيها وقدميها ، وان لم تره بعينها ولا رآه أحد ممن حولها ...))

لم تلفتني صورتها حين لمحتها عرضا في احدى الصحف ، اثر مصرعها الدامي ، بل ألقيت عليها نظرة عجلى ، ثم انصرفت عنها وأنا أردد في رثاء : « وهذه أخرى ، من جيل الضحايا » وخيل الى أن شيئا ما في صورتها غير غريب عني ، لكني بررت ذلك بأنها قد تكون نسخة من آلاف المعلمات اللواتي أعرفهن ، واللاتي تكاد تتشابه ملامحهن ويتماثل سمتهن ، وان اختلفت الأسماء وتباينت الألقاب .

واذ حز مصيرها الفاجع في ، عللت هذا بقرب المكان الذي عثروا فيه على جثتها غارقة في الدماء ، دون أن يخطر ببالي أن في أعماق ذاكرتي مكانا لها نسج الزمان عليه أردية النسيان .

وكان التحقيق المبدئي قد كشف عن بعض المعالم المميزة للضحية المجهولة ، فهي عذراء في العقد الخامس من عمرها ، متعلمة متحررة ، على صلة بشخص مجهول ، ترمز اليه في مذكرتها بحرفه « س » وكانت على موعد للقائه يوم مصرعها .

وقد تتبعت أنباء الجهود المبذولة لمعرفة شخصيتها ، في لهفة عجبت لها حينا ثم ما لبثت أن رددتها الى حزني على مصير واحدة من بنات هذا الجيل التعس الذي شقي بالصراع بين واقعه ومثله والحيرة بين فطرته الموروثة وشخصيته المستحدثة .

ولم يطل بي الترقب والانتظار ، فما مضت أيام معدودات حتى كشف الستار عن الجريمة الغامضة ، وأذيع اسم الضحية المجهولة التي عثروا على جثتها ذات مساء ، ملقاة بالعراء الى جانب سور « نادي الجولف » في ضاحية مصر الجديدة .

وأضيف الى ما عرف مبدئيا عن شخصيتها ، أنها كانت ناظرة لاحدى مدارس البنات الأميرية ، ثم استقالت وعاشت بمفردها فى مسكن مستقل باحدى ضواحى العاصمة ، بعيدا عن أسرتها التى تقيم فى قلب القاهرة . أما « س » الذى كتبت فى مذكرتها أنها على موعد للقائه ، فظهر من التحقيق أنه لص عاطل ، ذو سوابق فى النصب والسرقة ، وقد شهد جيرانها أنه كان يتردد عليها كثيرا ، وقد حسبوه خطيبها أو قريبها ..!

* * *

وفجأة ، شعرت بالضباب ينكشف فى ذاكرتى عن تلك التى نسيتها ، فاذا بى أرتد راجعة الى أربع سنين مضت ، حيث لقيتها للمرة الأولى والأخيرة ..

وجاءنى صوتها من أغوار هاتيك السنين حزينا ممزقا ..

وتمثلتها وهى تساق فى عنف قهرى ، نحو هذا المصير التعس، دون أن تملك منه فرارا أو تجد عنه حولا ..

كانت مشدودة الى مصيرها ، بحبل خفى ، تحس قبضته فى رسغيها وفى قدميها ، وان لم تره بعينيها ، ولا رآه أحد ممن حولها .

وقد حاولت المسكينة أن تتخلص من تلك القبضة القاسية ، وجربت غير مرة أن تنحرف بخطواتها عن الطريق المرسوم لها ، لكن محاولتها كانت تبوء كل مرة بالخيبة ، وبمزيد من الشعور بالعجز أمام القدر المحتوم .. وشيئا فشيئا ، بدأت تتخلى عن

المقاومة ، وتجد بعض المتعة المرة فى أن تقف أمام مرآتها فى كل مساء ، لتقرأ المكتوب على جبينها .

* * *

كيف كان لقاؤنا الأول ؟!

انى لأذكره الساعة كما لو كان قد حدث فى الأمس القريب . وكانت هى التى سعت الى لقائى بعد أن مهدت له بخطاب موجز قصير ، سألتنى فيه ان كان يضايقنى أن أمنح بضع دقائق من وقتى ، لبائسة مجهدة ، تستعد لمواجهة مصير تعس ؟

ونحن الذين نعرض مآسى البشر ، كثيراً ما يزدحم بريدنا برسائل من هذا الصنف الباكى ، يضيق وقتنا عن قراءتها فنكتفى بأن نلقى عليها نظرة خاطفة نلتقط مضمونها ، ثم نلقى بها جانبا ، يخامرنا شيء من الأسف لا يلبث أن يذوب فى غمرة الشواغل التى تحتكم فينا وتستأثر باهتمامنا .

وقلما تخلو هذه الرسائل مما يثير الحزن ، لكنا لكثرة ما نشهد فى الدنيا حولنا من فواجع أليمة ، لانعدم عذرا أمام ضمائرنا نبرر به اهمالنا لما تتلقى من رسائل : فأمثال هؤلاء الشاكين ، يشعرون بمتاعبهم الخاصة شعورا حادا ، يجسمه جهلهم بمآسى سواهم ، ولعل أحدهم لو أتيح له بعض ما أتيح للأديب من حس مرهف بمتاعب البشر ، لهون عليه ما يلقى ، ادراكه أن الحياة فى ذاتها عبء باهظ ، وما من حىّ يعفى من دفع ضريبتها الفادحة ..

وما كانت رسالة الشاكية المجهولة ، لتحظى منى بأكثر مما تحظى به الرسائل الأخريات ، لولا أنها كانت من الايجاز بحيث التقطت عيناى كل كلماتها من النظرة الأولى ، فلما نحيتها بعيدا! ، أحسست صدى النداء الملهوف يملأ مسمعى ، فلم أملك الا أن ألبى ..

* * *

وجاءت بعد أيام ..

ولم تلمح عيناى فى مظهرها شيئا ينم عن مأساة ، بل لعلها كانت بجسمها الممتلىء ، وهدوئها البادى ، وثوبها الزاهى ، أقرب الى أن تشى ببلادة فى الحس وجمود فى المشاعر ، حتى لقد رحت أعجب لسذاجتى التى خيلت لى أن وراء الكلمات القصار التى قرأتها فى رسالتها ، مخلوقة رقيقة مضناة ، تنضح ملامحها بألم كبير عميق ، ويشف كيانها الذاوى عن روح معذبة .

وقدمت نفسها الىّ فى عبارة مبتورة ثم صمتت فطال صمتها ، وأنا أقاوم شعورا خفيا بالضجر منها ، وأود لو نفضت ما عندها ثم انصرفت عنى ، ولكنها تشبثت بالصمت ، حتى رجوتها أن تتكلم .

فانتفضت انتفاضة يسيرة ، كمن يسترد وعيه الشارد ، ورنت الىّ بنظرة متوسلة تفتح لها قلبى الموصد ، وأتيح لى على أثر ذاك أن ألمح وراء هدوئها الذى رابنى ، واشتبه عندى بالبلادة والجمود ، شرودا يوشك أن يغيب بها عما حولها .

وانتبهت الى أن امتلاء جسمها ليس الا مظهر استرخاء ، ذكرنى بغتة بازدياد وزن المحكوم عليهم بالاعدام ..

وبدا لى ثوبها الزاهى ، أشبه بالرداء الأحمر الذى يميز ذلك الصنف من نزلاء السجون !

وآن لها أن تتكلم ، فلم يفتنى حرصها على التحفظ : كان أفدح ما يشقيها أنها نفسها لاتجد سببا معقولا يقنع أحدا ممن حولها أنها شقية الى أبعد حدود الشقاء ، فما من شخص يعرفها ، الا يراها قد ظفرت من الدنيا بأسباب السعادة : أصل طيب ، ومظهر لائق ، وسمعة محترمة ، ورزق موفور ، ومركز رسمى تحسدها عليه أكثر زميلاتها ، فماذا تبغى فوق ذلك كله لتسعد ؟

سألتها فى ترفق :

— فهل تدرين أنت ماذا يعوزك ؟

أجابت وهى تهز رأسها فى حيرة :

— الواقع انى لا أدرى ، بل لست أدرى كذلك متى بدأ الشعور بالتعاسة يتسلل الى أعماقى فلم أنتبه اليه الا بعد أن توغل واستفحل ، فقد كنت حتى ماض قريب ، مزهوة بما أتيح لى من حظ وافر ، ولم تكد الدنيا تسعنى يوم رقيت الى منصب ناظرة ، وجلست فى مكتبى أدير شئون مملكتى وألقى أوامرى تتنفذ ، وأبدى رغباتى لتطاع ، وبين يدى عدد من المعلمات والموظفين والحجاب والخدم ، يأتمرون بأمرى ويتملقون غرورى ويتحرون رضاى ، الى أن شعرت باحساس طارىء من القلق المشوب بالزهد

فلم ألق اليه بالا ، وحسبته لايعدو أن يكون ظاهرة عارضة من ظواهر التخمة والامتلاء .

ولكن تجاهلى لم يجد شيئا ، بل لعله أتاح لجرثومة القلق والزهد والشك ، أن تفرخ فى طوايا نفسى ، وأن تنمو وتتكاثر على غفلة منى ، حتى أمسيت وما فى الدنيا شىء هو أشهى الى ، من أن أنفض يدى من دنياى هذه ، وألفظ المنصب الذى تتطاول اليه أعناق الزميلات .

قلت أسايرها :

— فلم لا تفعلين ؟

فما راعنى الا أن زاغ بصرها فى رعب وتعثرت الألفاظ على شفتيها مقاطع ممزقة مبتورة ، وبدا أنها تبذل جهدا شاقا لكى تستعيد سيطرتها على لسانها !

وبجهد شاق كذلك ، استطعت أن أجمع من هذه المقاطع الممزقة ، خيوط المأساة :

جاءت الى الدنيا رابعة اناث لأبوين لم يرزقا بالبنين ، وماتت أمها عقب الوضع ، فرعاها أبوها وقد صمم على أن يجعل منها رجلا !

وهيأ لها من فرص التعليم والنجاح ، مالم يتح مثله لأخواتها الثلاث ، ثم دفع بها الى مدرسة المعلمات ، بعد أن وقع تعهدا يقيدها بمهنة التدريس لمدة خمس سنوات يحرم عليها خلالها أن تتزوج ، فلما انتهت هاتيك السنوات ، أقام من نفسه

حارسا عليها يصد عنها طلاب الزواج ، ويصور لها كل خاطب في صورة اللص الذى يريد أن يسلبها كل ما ظفرت به من مجد ومال .

وكانت — رغم تعلمها — ساذجة غريرة ، تعوزها التجربة والخبرة بالحياة فصدقت الزعم القائل بأن سعادة الفتاة الجديدة ، رهن بتحررها من أوهام العاطفة ، وأغلال الزوجية ..

حتى جاوزت الأربعين ..

وقل الطارقون من اللصوص ..

واطمأن أبوها ، فرفع عنها قيود الحراسة ، وكف عن القاء دروسه عليها ، وخلى بينها وبين الحياة ، وفي حسابه أنه أمن مستقبلها ، وضمن نجاتها ، وأراحها من عجز أنوثتها ، وجعلها — كما شاء — رجلا !

* * *

وشاقها أن تلقى « أحد اللصوص » بعد أن تحررت من سيطرة أبيها .. لكن انتظارها طال ، دون أن يدنو من بابها المفتوح أى طارق .

وكان هذا وحده كافيا لأن يحيل فضولها الى نوع من اللهفة العاتية ، صرفتها عن كل شىء ، وزهدتها فى كل شىء ، الا فى « اللص » الذى طال انتظارها اياه ..

وبلغت بها المحنة أقسى المدى . حين أحست بغتة بهاتف من أعماقها ، يدفعها الى أن تبحث بنفسها عن اللص ، بدلا من أن تترقب مجيئه ، وهو لن يجىء .

ومن تلك اللحظة ، عرفت مصيرها الرهيب ، ولم تجدها أية محاولة للفرار .. بل لم يجدها يقينها أنه ما من رجل يرضى أن يتزوج عانسا فى الخمسين من عمرها ، الا أن يكون حقا ، لصا محتالا ..

وهكذا راحت — شبه مخبولة — تبحث عن بغيتها بين من تلوح عليهم سمة اللصوصية والخسة والدناءة .

فلما أدركت أن هيبة مركزها تصد عنها هذا الصنف من سفلة الرعاع ، قررت أن تتخلى عن عملها الذى لم تعد تجد فى ممارسته شبه لذة ، ولا وهم عزاء ، وأعدت لنفسها مسكنا خاصا بعيدا عن أسرتها ، واستبدلت بزيها المدرسى الوقور ، زيا براقا ملائما للوسط الذى قررت أن تعيش فيه ووجدت فى استسلامها لنصيبها المقدور ، راحة اليأس ، وهى لا تدرى أنها بسعيها الى اللص ، انما أرادت أن تنتقم ممن دمر حياتها وسلبها هناءتها ، باسم حمايتها من « اللص » .

ولم تكن حين جاءت للقائى ، تنوى أن تكشف عن سرها المطوى ، وانما أغراها ما قرأت لى فى « صور من حياتهن » فاشتهت أن تودع حياتها المحترمة بالحديث الىّ ، قبل أن تتجه نهائيا الى القرار السحيق .. ولم تسألنى نصيحة أو رأيا ، بل قامت مستأذنة فى الانصراف وكأنما لم تعد تحتمل مواجهتى بعد أن أفلت لسانها بالسر الأليم ..

وقلت وأنا أودعها :

— أفلا أراك مرة ثانية ياسنية ؟

أجابت فى يأس :

— ليتنى أستطيع ، لكن شمس الغد لن تشرق علىّ ، وأنا منتمية الى دنياك !

وتشبثت بها لحظة لأقول لها :

— فهلا لذت بايمانك حتى تجتازى هذه المحنة التى تمر بها كل فتاة فى مثل ظروفك ؟

فلاح على أساريرها المتعبة ، ظل ابتسامة يائسة ، ثم غابت عنى ..

* * *

وتبعها قلبى محزونا منفطرا ، لكنى رجوت أن تئوب الى شىء من الراحة بعد أن تعبر مرحلة « اليأس » القاسية ..

ولكن هل تعبرها بسلام ؟

سؤال لم أجرؤ على التماس الجواب عنه ، حتى كشفت لى الأيام عنه بعد أربع سنوات ، من حيث لا أحتسب ولا أقدر ..

وأدركت آخر الأمر أنها سارت الى مصيرها المحتوم مفتوحة العينين : فليرحمها الله ! .

المتنكرة ...



« لكيلا تأسوا على مافاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم »

أصبحنا ذات يوم ولا حديث لنا فى المعهد سواها . كان قد أذيع فى ذلك الصباح نبأ تعيينها وكيلة بالمعهد ، ولم أكن عرفتها من قبل ، ولا سمعت من أخبارها شيئا ، وبدا لى فى ذلك الحين أننى الوحيدة التى تجهل أمرها . وكأنما كان ذلك الجهل شذوذا! مستغربا ، فقد تعاقبت الزميلات على غرفتى واحدة فى اثر أخرى ، يسألننى ان كنت حقا لم أسمع شيئا عن الوافدة الجديدة ؟ ثم أصابتهن لوثة من الثرثرة الهاذية ، فراحت كل واحدة منهن تروى قطعة من أنبائها ، وتقص فصلا من قصتها .

ولم يبد فيما سمعت شىء من الغرابة أو الشذوذ ، فمثله يحدث فى كل آن . والقدر يصنع فى كل لحظة ألوفا من أمثال قصتها ، وألوفا من غير أمثالها . انما يبدو لنا الأمر عجيبا لأنه انتقل من المسرح الكبير الى مسرح معهدنا ، وراح يعرض أمام أعيننا ويتلى على مسامعنا ، فخيل لكثيرات منا — معشر المتفرجات — أنها قصة نادرة ، لا مثيل لها الا فى خيال صناع القصص ومؤلفى الروايات .

نشأت نشأة منعمة ، فى بيت وافر الثراء ، فى عاصمة من عواصم أقاليم الشمال ، اشتهرت نساؤها بالجمال . ولم تكن ذات عز موروث أو أصل عريق ، فقد عرف أبواها من قبل ، قسوة الكفاح الشاق فى سبيل العيش . لكنها لم تدرك ذلك العهد ، ولم تلمح من آثاره المادية الا ظلالا باهتة متضائلة ، تجنح الى المغيب . ذلك لأن أباها اشتهر باتقان صنعته ، وتهافت سراة الاقليم على مطعمه

يطلبون طبق الفول الممتاز ، وأقراص الطعمية الفاخرة الشهية . فألفى الرجل نفسه فجأة ذائع الصيت ، عامر الجيب بالمال ، جليسا لأبناء العز وذوى الجاه والسلطان . وتلفت حواليه ليرى شبح الفقر الذى كان يتبعه كظله ، فلم يجد الا النعمة والشبع والثراء .

وكانت « بهية » صبية تدنو من عامها السابع حين انتقل أبوها الى مسكن يناسب ثروته المستحدثة ومكانته الجديدة ، ويليق باستقبال ضيوفه الوجهاء . وخيل الى الناس من حوله أن ما بينه وبين أيامه السود الماضيات قد انقطع ، وانه قد نسى ما عانى وقاسى ، فى عهد الفقر والحرمان . لكنه فى الواقع لم يفلح فى نسيان هذا الماضى على كثرة ما حاول أن ينساه . كانت صور الأمس الشقى تتراءى أمامه كأنها لعنة تفسد عليه يومه السعيد ، وتشوه نعمته الحاضرة . وعبثا جاهد فى الافلات من هذه الأشباح التى تلاحقه وتطارده ، لقد كانت معه فى كل مكان من عالمه الجديد ، يراها فى بهو الاستقبال الفخم ، وفى قاعة الطعام الأنيقة ، وفى مخدعه الخاص حين ينام .. ثم خيل اليه — فى لحظة من لحظات الجحود الكافر — ألا نجاة له من اللعنة الا اذا أزاح من أمامه زوجته التى شاركته العيش فى الماضى البغيض ، فهى وحدها ظل ذلك الماضى ، وصورته التى تطالعه فى كل مكان ، وفى كل آن .

وسرحها بعيدا .. فلم تعد تطالعه بهيكلها الذى أذواه الحرمان ، وبصرها الكليل الذى أتعبه العكوف على خياطة ثياب الجيران ، ويديها المعروقتين اللتين براهما العمل المضنى فى البيت الفقير ،

سرحها بعيدا ، فعادت سيرتها الأولى ، تخيط الملابس لتعيش . وتنفس هو مرتاحا ، وأقبل على حياته الحاضرة ، يذوق النعمة الطارئة ، ويملأ كأسه من رحيق العز الجديد .

ورأى الناس طفلته تروح وتغدو الى المدرسـة الابتدائية — حيث لم يكن يلتحق بها فى ذلك العهد الا بنات الذوات — ومن ورائها تابع خادم ، يحرسها ويحمل لها كتبها وأدواتها .

وكأنما ورثت الصـبية عن أبويها ، القـدرة على الكفاح ، وأخذت عن بيئتها الأولى ذلك الذكاء الذى يرهفه العمل الدائب ، وتحميه الحاجة من افساد الترف وخمول العز .

وظهرت عليها مخايل نبوغ مبكر ، فتفوقت على زميلاتها جميعا، وغدت — فى تلك الحداثة الباكرة — ملء الأسماع ملء الأبصار، وراح ضيوف أبيها ورواد مطعمه ، يغمرونها بفيض من التدليل والاعجاب ، هيآها من بعد للدور الأكبر الذى راحت تمثله على مسرح الحياة .

* * *

لم تكد تتم دراستها الابتدائية بتفوق ظاهر ، حتى احتضنتها وزارة المعارف ، وأعطتها المكان الأول فى « المدرسة السنية » . فتابعت دراستها محتفظة بتفوقها وامتيازها ، ثم اختيرت لبعثة الى جامعة لندن ، حيث بدأ فصل جديد من قصة حياتها الحافلة بالأحـداث .

ظهرت هناك فى لندن ، فى ذلك الشمال البارد النائى ، تحمل

فى عينيها السحر المصرى العريق ممتزجا ببريق الذكاء اللماح ، وتحمل فى وجهها سمات الجمال الشرقى الصميم ، مصقولا بالحضارة والنعمة ، وتحمل فى جسمها آثار الارتواء من ماء النيل والامتلاء بخيرات واديه المبارك .

وأحاط بها نفر من زملائها طلبة البعثة معجبين متقربين ، لكنها تنكرت لهم وتعالت عليهم ، وراحت ترنو الى بعيد . لقد ألفت اعجابا آخر من قوم آخرين .. من هؤلاء السراة الأثرياء الذين كانوا يترددون على مطعم أبيها وبيته ، ويثيرون فيها زهو الأنوثة ، بما كانوا يسمعونها من آيات التقدير والثناء . وزادها تفوقها الدراسى ، وذكاؤها اللامع ، زهوا على زهو ، فاذا هى تنأى عن زملائها ، وترى فيهم غير أهل لشرف صحبتها . وانها لتتطلع من الغرب النائى الى بلدتها الجميلة فى شرق الدلتا ، فترى نفسها تخطر بين قومها فى أبهة وعظمة ، ومن حولها أترابها — وفيهم بنو عمها واخوتها لأمها — يحومون حولها ، دون أن يجرؤوا على الدنو منها أو الطمع فى صحبتها .

كذلك حاول زملاؤها فى لندن أن يجذبوها الى مجامعهم وحفلاتهم ونواديهم ، فتأبت عليهم واستعظمت أن تعتبر نفسها واحدة منهم سواء بسواء . وهكذا انطلقت وحدها فى بلاد الغربة ، مترفعة متنكرة ، تلتمس مجامع أخرى أرقى من مجامع الزملاء ، وترجو صحبة آخرين أعظم وأكبر من هؤلاء الطلاب ، وتنشد محيطا آخر ، يرضى زهوها ويناسب ما ألفت من مظاهر الأبهة .

وغاب عنها أن الناس لا يغفرون لمثلها هوان شأن أسرتها قبل أن يرفعها الثراء ، ولا ينسون أباها من كان ، ولا أمها من كانت ، فى عهد الفقر والحرمان ، وان خيل اليها والى غيرها ، أن هذا الماضى البعيد قد طواه العدم ، ونسجت عليه الأعوام ستارا من النسيان .

* * *

لم يدهش زملاؤها حين رأوها تتردد على أفخم المسارح والمطاعم ، وتتودد — فى تواضع مشوب بالخوف — الى من تلتقى بهم هناك من علية القوم . لكنهم دهشوا حقا حين رأوها تغدو وتروح الى أحد الأندية السياسية الكبرى ، وتمضى وقتها هناك ، حتى لم يعودوا يرونها الا فى ساعات الدرس . وفى تلك الساعات المحدودة ، لم يكن يفرغ لها حديث عما تعلم من « أسرار الدبلوماسية » ، ومن تعرف من أعلام السياسة ورجال الحكم . فاذا ما انتهى الدرس ، طافت بزملائها جميعا لتخطرهم بذهابها الى المفوضية ، وفى عينيها دموع الفخر ، وعلى وجهها اشراقة السعادة ، وفى صوتها نغمة المباهاة .

وشغلوا بها حينا فراحوا يبحثون عما جد من أمرها ، لكنها لم تدعهم فى حيرتهم ، بل تطوعت باخبارهم بالنبأ العظيم : انها توشك أن تعلن خطبتها الى قطب سياسى مشهور ، ليس بينه وبين « كرسى الوزارة » الا أن يعود الى مصر ، بعد أن يفرغ من مهمته السياسية الخطيرة التى أوفد من أجلها الى لندن . فهز الزملاء رءوسهم بين مصدق ومكذب ، ثم خلوها تهذى بأسرار الدبلوماسية وتحلم بالمكانة التى تنتظرها فى مصر يوم تعود اليها وتعلن خطبتها .

وعادت ، وعادوا جميعا ..

وألحقت وألحقوا بالمراكز التى أعدتها لهم الحكومة عقب نجاحهم فى بعثاتهم الدراسية .

وتفرقوا هنا ، وهناك ، وهنالك ، وقد خيل اليهم جميعا أن قصة الزواج العظيم ، لم تكن سوى حلم تراءى لصاحبتهم فى رؤى يقظتها ، فخيل اليها زهوها وتنكرها ، أنه واقع لا خيال فيه .

* * *

دخلت علىّ فى مكتبى بالمعهد تريد التحدث فى التليفون ، وكنت أشتغل باعداد بحث فى « النقد الأدبى » فخليت أوراقى جانبا ومضيت أطيل النظر اليها ، أحاول أن أقرأ على وجهها سطور القصة التى سمعتها ، لكنها بدت أمامى معتمة لا تشف عما وراء نظرتها الناعمة ، وجسمها الممتلىء ، وثيابها الفخمة . ثم رحت أدنو منها على حذر ، وأتابعها النظر وهى تنتقل هنا وهناك ، فى أبهاء المعهد وقاعاته . فبدت لعينى قلقة متعبة ، ولمحت على وجهها ظلا من الضجر والملال . ثم ما لبثت أن انصرفت عنها ، وشغلت بما كان يرهقنى من مشاغل وأعمال .

وكان همس الزميلات يترامى الى من حين الى حين ، يضيف سطرا جديدا الى قصتها ، ويزعم أنها تزوجت سرا من صاحبها ، لكنى لم أطل الاصغاء الى ذلك الهمس ، وخليتها لشأنها ومضيت لشأنى .

وانتهى العام الدراسى ، وترك لى فراغا لم أتعوده ، فألفيتنى

مشوقة اليها ، وأحسست رغبة ملحة فى أن أراها ، وأجلس معها ، وأخلو اليها ، وأصغى الى حديثها . لقد حدثنى عنها كل من أعرف من الزميلات لكنها لم تحدثنى قط عن نفسها . ولقد سمعت قصتها من هذه وتلك ، لكنى لم أسمع منها حرفا واحدا . فليت شعرى بأى حديث يجرى لسانها لو خلوت اليها ؟ وأى سر تنطوى عليه تلك المتنكرة ؟ .

ووجدتنى ذات أصيل أدخل عليها مسكنها الأنيق ، فأخذتنى مظاهر الأبهة فيه ، وزاغت عيناى وأنا أتطلع الى اللوحات الرائعة التى تزين الجدران ، والتحف النـادرة المنتشرة فى كل مكان ، والأثاث الفخم الذى لا يرى مثله الا فى القصور . فلما زايلتنى أخذة الدهشة ، شعرت بخجل واستحياء ، فقد رأيت يد صاحبتى تنتظر يدى ... قلت معتذرة : « لا تؤاخذينى ، فما أرى مثل هذه الأبهة فى كل حين . وأنت لابد تعلمين أنى قضيت صباى فى الريف، وبه من خشونة العيش ما يفسر لك دهشتى اليوم » .

فتبسمت ضاحكة من قولى ، ثم أخذت بيدى فى مودة ظاهرة ، ومضت تطوف بى فى أنحاء المسكن ، وترينى ما لم أر من تحفـه وأثاثه ، وتحدثنى عن تاريخ كل لوحـة ، وعن قيمة كل قطعة ، وانتهى بنا المطاف الى شرفة تطل على أجمل ميادين العاصـمة ، فألقت نفسها على مقعد وثير فى فتور واعياء ، وراحت تحدق فى الشمس الغاربة ، وتتبع بعينيها قطع الضـوء المشردة على الأفق الباهت . ثم آبت الىّ وعلى وجهها الشاحب ما يشبه الخوف .

وتناولت قدحا من الشاى رد عليها بعض النشاط ، ثم اندفعت — من غير أن أسألها — تقص على قصتها ..

وخرجت من عندها وقد ربطنا رباط وثيق ، وكأنما أدناها منى وأدنانى منها ، ما كشفت لى من سرها .

* * *

وتعودت منى بعد ذلك أن ألم بها كلما جئت القاهرة فى عطلة الصيف الطويلة ، فكانت تلقانى بادية اللهفة والارتياح . ولعلى ما جئتها مرة الا هتفت بى فى أسف : « لو تقدمت دقائق ؟! لقد كان زوجى هنا ! » ، فأبتسم لها فى رقة ورحمة ، وأصغى اليها وهى تشكو ما يعانى زوجها من متاعب السياسة ومشاغل الأمور العليا ، وتكشف لى عما تكابد من أشواق ، وما تعانى من مرارة الكتمان لزواج تراه موضع الفخر والمباهاة .

آه لو رزقت طفلا ؟! اذن لصحح مركزها ، واعترف بها زوجها ، وظهرت على الملأ فى مركزها الحقيقى الموموق ، الى جانب زوجها الكبير .

وألفت أن أرى فى بيتها صورا وأشكالا من النسوة الضاربات بالرمل الطوارق بالحصا ، يتسللن اليها فى شحوب الغسق ملثمات مقنعات ، فتلقاهن متلهفة ، وتصغى الى نبوءاتهن عما كتب لها فى ضمير الغيب . كما ألفت أن أراها تتلو فنونا من التعاويذ ، وتمارس ألوانا من الطقوس الغامضة ، أوصى بها السحرة والعرافون .

ولقد هممت يوما أن أنقذها من هذا النطاق الوهمى الذى

ضربته حولها النسوة المرتزقات بالعرافة والسحر ، لكنى أشفقت عليها من قسوة الحقيقة السافرة ، وتركتها تسلم نفسها الى هؤلاء النسوة ومن لاذ بهن من كتاب التمائم وصناع « الأعمال » وتنعم برحلتها الى وادى الخيال على أجنحة الوهم !

حتى لحظت فجأة أنها بدأت تبرم بزيارتى ، وقد اعتذرت الىّ يوما بأنها تخشى أن يرانى زوجها أزورها فيعلم أنها أذاعت الأمر ، وهو يريد أن يبقيه سرا حتى لا تكيد له زوجته الانجليزية ، وحتى لا يستغله خصوم حزبه فيشهروا به ويلقوه فى طريقه الى « الوزارة » . هنالك ودعتها وانصرفت وفى عزمى ألا أراها — فى غير المعهد — بعد ذلك اليوم !

لكنى رأيتها بالرغم منى قبل أن يمضى شهر واحد ..

رأيتها فى ظروف تعسة ، اذ حملت الى «الصحف» نبأ محاولتها الانتحار ، ونقلها الى مستشفى قصر العينى لاسعافها .

وهناك .. شاهدتها تتلوى على فراشها ، وتهذى بسرها ، وتسأل كل من تراه : لماذا أنقذوها من الموت وما تريد أن تعيش ؟

أو لم يتخل عنها أمل صباها وحلم شبابها ، ويتركها لليأس والوحشة والفراغ ؟

أو لم يخل بينها وبين شماتة العدا ، ويدعها للألسن تمزق جلدها وتنهش لحمها ؟

سألت : ما الخبر ؟..

فتلا علىّ القدر ، الفصل الجديد الذى أضافه الى مأساتها :

« .. استدعيت الى وزارة المعارف وسئلت فى صرامة وحزم عما يربطها بفلان هذا الذى أرجف مرجفون أنه على صلة بها ، فأبرزت عقد زواجها . ثم هرعت الى الزوج تعتذر عما أذاعت من سرهما ، فكان رده عليها أن بعث اليها ورقة طلاقها ، على يد صديق من المحامين البارزين ..

ورأت أن تقامر بحياتها وتحاول المحاولة الأخيرة ، فتناولت جرعة من عقار سام ، فاما أن يرحمها صاحبها ويعود اليها ، واما أن تموت فتستريح .

ونسيت — كالعهد بها — الفرض الثالث ، وهو ألا يرحمها صاحبها ولا تموت ! » .

وقد كان هذا الفرض الثالث ، هو الذى اختاره القدر مؤلف قصتها ، فأبقاها فى المستشفى أياما تنتظر صاحبها عبثا ، وقد أفلتت من الموت أو أفلت الموت منها ..

* * *

وفجأة ظهر فى أفقها شاب لم يشهده أحد على المسرح من قبل:

شاب يافع ، أنيق ناعم ، له حسب ونسب ، لكنه عاطل لا يصلح لعمل ، فقير لا يملك سوى جنيهات ثمانية مرتبا شهريا من وقف للأسرة الكريمة .

وتطوعت احدى زميلاتنا فجاءتنا ببقية أخباره :

« لقد كان يحترف الزواج من النسوة ذوات المال ، لا يعنيه وراء ذلك ضعة أصل ، أو كبر سن ، أو سابقة زواج .

وقد ماتت زوجته الأخيرة ، عن ابنة صبية ، لا يرعاها الا بقدر ما يشرف على الميراث الذى ورثته عن أمها ، أما ما عدا ذلك من شؤونها ، فتنهض به أسرة كاتب دائرة الوقف ، نظير أجر معلوم .. »

* * *

وظهرت « بهية » على المسرح ، تركب عربة أنيقة ، يسوقها زوجها الشاب بالغ الأناقة ، بادى الرقة والنعومة ، مصقول المظهر ، مهذب الحركة . وتعودنا أن نراه يأتى بها الى المعهد كل صباح ، ثم ينطلق بالسيارة الى حيث يقوده شبابه وفراغه ، ومجد أصله ، وجمال شكله ، وأناقة مظهره .

وتبقى هى فى العمل ، مهمومة متعبة ، تعانى ما تعانى من كيد الكائدات وهمس الهامسات ، وتلاحقها نظرات الرثاء أو الاشتفاء ، فاذا انتهى عملها المدرسى مشت الى العربة الأنيقة ، وعلى وجهها وثيابها غبار العمل ، وفى عينيها ظلال القهر والألم ، وفى جسمها آثار الاجهاد والاعياء .

ولست أدرى ماذا دهانى فى ذلك الحين ، فقد ألفيتنى معناة بأمر صاحبتى تلك ، مشغولة بها ، منفعلة بعطف عليها ممزوج بالخوف واللهفة والقلق . وكانت المودة التى بيننا قد فترت منذ رأيتها تتهرب منى وتفر من مواجهتى . فاكتفيت بأن أشيعها كل يوم ساعة خروجها ، بنظرة رحيمة ، حتى اذا غابت السيارة عن عينى فى جنان الجزيرة ، أطرقت لحظة أفكر فيها ، وتراءت لى منها صور متنكرة مبهمة ، يغشاها الضباب . ثم أثوب الى عالمى والى مشاغلى ، وفى النفس ما فيها من قلق وأسى .

ولم نسمعها يوما تشكو حظها أو تنكر من زوجها شيئا ، بل كان يطيب لها أحيانا أن تتحدث عن دائرة الأسرة ، وأوقاف الأسرة، وأصدقاء الأسرة ، لكن قناعها لم يكن يخفى عنى ما وراءه من هم وحسرة وشجن . كان يبدو عليها أنها أسلمت فى لحظة واحــدة حلمها الكبير وأملها الغالى ، واستسلمت لواقع الحياة فى انكسار وخضوع ، حين أدركت أن الناس لا يسمحون لمثلها أن ترقى الى المقام الذى رنت اليه .

وران على أفقها هدوء يشبه الموت ، وأمست حياتها صورة واحدة تتكرر فى سآمة وصمت وجمود .

* * *

ثم كان ما زعمت أنه منقذها مما هى فيه ..

حملت بعد شبه يأس ، وتنبأت الضاربات بالرمل أنها سوف تلد ذكرا ، يلمع نجمه فى أفق السـعود ، ويتلألأ ضــوؤه فيبهر العيون ..

وأغفلت المسكينة تحلم ، بعد أن أجهدها السهاد ..

ولبثت أرقبها من بعيد ، وما يخفى علىّ تنكرها ، وما يزايلنى ذلك الشعور المبهم من القلق والأسى ..

* * *

حتى أمسينا ذات ليلة ، وقد اقتربت ساعة وضعها ..

واجتمعنا فى القسم الداخلى بالمعهد ، غير بعيد من بيتها ، نرجم بالغيب ، ونتمثل ما يكون ..

ثم أصغينا نتسمع ، فلم نميز لها صيحة أو صوتا ، فقد كانت الليلة عاصفة ، لا يسمع فيها الا عويل الريح ، وبكاء السماء ..

وفى شحوب الفجر الوليد ، عادت الينا احدى زميلاتنا بالنبأ :

لقد وضعت « بهية » .

سألنا جميعا فى صوت واحد : فماذا وضعت ؟

قالت : مولودا ذكرا ، قوى البنية ، بادى الجمال ..

فضجت الزميلات بأصوات مختلطة ، ومضين الى مخادعهن قبل أن يسمعن بقية النبأ :

« .. وماتت ساعة الوضع ! » .

سألت : لم تره ؟

فأجابت الزميلة : كلا ..

ثم مضت هى الأخرى عنى ، وبقيت وحدى أحدق واجمة فى بقايا الظلام ، وأصغى فى ذهول حزين الى عويل الريح وبكاء السماء !

المخدوعة !



((كانت القصة كلها دعابة مرة قاسـية من القدر الذى لوح لها بسراب خداع ، فجرت اليه متلهفة ، حتى اذا بلغته لم تجده شيئا)) .

كنت أعود زميلة لى مريضة ، أوت الى مستشفى العجوزة لتمضى فيه فترة النقاهة ، اثر عملية جراحية أنهكتها . وقد جلست فى فراشها تفضى الى بما تلقى من نكد العيش والحاح السقم ، وكنت أعلم بعض همومها ، فتركتها تتنفس وتشكو ، لعلها تستريح.

ودخلت علينا زائرة تعودها فشعرت بما يشبه الضيق ، ونظرت فى رحمة واشفاق الى صاحبتى وهى تدارى أساها ، وتلقى ضيفتها بابسامة مزورة مغتصبة .

وانصرفت أنا عن الزائرة ، وتشاغلت بالنظر الى سرب من الحمائم البيضاء ، أدركها المساء فحطت على غصون الأشجار الضخمة القائمة على ضفة النيل ، ووجدت فيها ملاذا يعز على كثيرين من بنى البشر .

لكن الزائرة لم تلبث أن خرجت على عجل ، معتذرة بموعد لها مع خطيبها فى فندق « مينا هاوس » ، فألقيت عليها نظرة عجلى وأمسكت ضحكة ساخرة ، لو أفلتت من فمى لأحرجتنا جميعا ، ثم لم تكد تغيب عنا فى ممرات المستشفى حتى التفتُ الى صاحبتى أقـول :

— عفوا .. لم أكن أعلم ان من زائراتك احدى رائدات « مينا هاوس » ولا كنت أدرى أن من صواحبك من تنتمى الى الطبقة التى لا تتحرج من ذكر مواعيدها مع الخطاب والأصدقاء !

قالت مبتسمة : من ظننتها تكون ؟

أجبت مسرعة : معلمة معك ، أو أية واحدة أخرى من طبقتنا الكادحة التى لا تعرف « مينا هاوس » الا سماعا .

سألت : وأين ظننتها تعيش ؟

قلت : فى بولاق ، أو زينهم ، أو الدرب الأحمر ، أو فى جوار بيتك بامبابه !

فضحكت وقالت : كذلك هى .. لكنها حقا مخطوبة الى رجل ثرى ، يتنقل بها بين مينا هاوس وشبرد وسميراميس .

فسألت فى اهتمام : أمن السراة الأعيان هو ؟

أجابت : كلا ، بل يعيش معها فى حى بولاق ، وفيه ولِدا ونشآ جميعا ، هو وهى ، وأهلوهما من قبل .

خيل الىّ أنها تمزح ، لكنها كفت عن الضحك وقالت فى جد :

— حسبتك تعرفينها ! انها تنتمى الى بعض أقربائك بصلة مصاهرة وطالما سمعتها تذكرك وتذكر عنك ما أعرف أنه صحيح . ولقد عجبت أيما عجب حين رأيتكما تتناكران ، وكأنك لست التى تتحدث هى عنها كل حين !

فنظرت اليها فى غباء وأمسكت حينا لا أتكلم ، ثم ما لبثت أن أسرعت الى النافذة أحاول أن أملأ عينى من تلك الزائرة : القريبة الغريبة ، المجهولة المعروفة !

لكنها توارت عنى فى سيارة فخمة كانت تنتظرها بباب المستشفى فلم أكد ألمح منها على البعد الا الجسد الضئيل يطويه معطف فاخر من الفراء .

ورفع عن بصرى غطاؤه فعرفتها ، وترحمت على سيدة لبقة من سيدات الأسرة ، قيل انها رأتها يوما ترتدى ثوبا جميلا فلم تتمالك أن تقول :

— حاجة تكسف ! فستان على شماعة !

أجل عرفتها ، وان لم أكن رأيتها .

وكثيرا ما رغبت فى رؤيتها — لطول ما سمعت عنها — فلم تتح لى فرصة لذاك .

بل طالما رجوت من يعرفنى ويعرفها ، أن يهيىء لى وسيلة ألقى فيها تلك التى لايكاد حديث القوم يفرغ منها حتى يعود فيبدأ من جديد ، بجديد من أمرها .

فما أعجب المقادير !

لقد هيأت الفرصة المرجوة ، وجاءت بها الى جانبى ، وأجلستها معى فى غرفة واحدة مساء ذلك اليـــوم ، لكننى انصرفت عنها ورحت أتشاغل بحمائم بيضاء حطت على غصون الأشجار !

وحاولت — بعد أن خرجت لموعدها — أن أستحضر صورتها، وأتذكر ملامحها ، فما أسعفنى شيء ، اللهم الا هذه الشماعة التى تحمل معطفا فاخرا من الفراء . فى زمن ندر فيه الصوف ، وعز الكستور !

لقد انطلقت بها السيارة فى الجزيرة ، وورايتها عنى تلك الأشجار الضخمة المعمرة ، التى صرفت نظرى اليها فرارا ممن رغبت طويلا أن أراها !

هنالك أغلقت النافذة ، وعدت الى مجلسى بجوار المريضة ، لكنا لم نعد الى الحديث الذى قطعته الزائرة فضقنا بها ، وانما أخذنا نتحدث عنها .

سألت صاحبتى : تعرفين كثيرا عنها ؟!

فأجابت :

« كلا ، بل أعرف القليل . انها تشتغل معلمة فى مدرستنا ، وقد جاءتنا ذات صباح تحمل فى خنصرها خاتما من الماس يخطف ببريقه الأبصار ! وكان مجرد وجود هذه الجوهرة فى بركة الفيل — حيث تقع المدرسة — أمرا غير عادى ولا مألوف !

« ولما أمسكت اصبع الطباشير بأناملها الملوثة بالمداد ، والمزينة فى الوقت نفسه بالخاتم الثمين ، بدا المنظر فى عينى غريبا شاذا ...

« وحدثتنا فى فسحة الغداء ، ونحن جلوس الى مائدتنا المتواضعة ، نشرب حساء العدس ، ونتفكه بالبلح الرملى ، حدثتنا عن خطبتها لثرى من أبناء جيرتها ، يملك أبوه دكانا للحدادة ، جاءت الحرب فأحالته منجما من الذهب .

« وسألتنا أن نشير عليها بما تصنع ، فما تزال فى حيرة من أمرها .. يستهويها هذا العز الجديد ، وتخشى فى الوقت نفسه أن ينصرف الزوج عنها ذات يوم فتلفى نفسها قد خسرت كل شىء : الوظيفة الطيبة ، والزوج الثرى معا . لكنا جميعا صحنا بها ألا تدع الفرصة الذهبية تفلت من يدها ، والا فلو أن كل ذات وظيفة أو معاش رفضت الزواج ، لاحتمال الاخفاق فيه ، لكان مصيرنا — نحن الموظفات — أسود منكودا ، ولتألف منا على مر الزمن ، جيش من العوانس ، تلوح ظلالهن الكئيبة فى أفق المجتمع ، فتشوه كل جمال فيه ! ولم يبد عليها أنها اقتنعت ، لكنها

اطمأنت أخيرا حين وعد الخطيب أن يضمن لها — يوم الزواج — معاشا ثابتا يجرى عليها ما يعادل مرتب الوظيفة .

« وأقبلنا عليها نهنئها ونبارك لها ، حتى اذا خلونا الى سمرنا وهى غائبة ، أخذنا نعجب من أمرها وأمر خطبتها ، وتمثل لنا الحظ يسرى معصوب العينين ، وفى يده بطاقات يوزعها على من يلقى اتفاقا : فى بعض هذه البطاقات سمن وعسل ، وفى أخرى فجل وبصل ! فى بعضها رمل وحصى ، وفى أخرى فصوص من ثمين الجواهر ! فى بعضها جمال يبهر ويروع ، وفى أخرى دمامة شنعاء ! فى بعضها صحة وعافية ، وفى أخرى سقم وضنى !

« وتذاكرنا هذه البطاقة الأخيرة التى أعطاها الحظ لصاحبتنا ، وفيها زوج ثرى ، محب سخى ، وذكرنا معها بطاقات أخرى خالية فارغة ، كانت من نصيب ذوات جمال وشباب قضى عليهن بالشقاء والحرمان .

« وكانت أفكارنا جميعا تلتقى عند كلمة واحدة : حظوظ ! ثم ننصرف وقلوبنا تتجه الى السماء ، مبتهلة الى الله — فى ضراعة صامتة — أن يسعدنا بمثل حظ الزميلة الموعودة !

« هذا هو مبلغ علمى بأمرها ، وعما قريب تدعنا غاطسات فى « بركة الفيل » وتمضى الى قصر فخم ، يقال ان الخطيب يعتزم شراءه فى جاردن ستى ، ويعد له منذ الآن ، كل فخم وثمين من الأثاث والرياش ! » .

* * *

وسكتت الصاحبة ، ثم أطرقت واجمة ، فما شككت فى أنها تقارن بين حظها وحظ صاحبتها ، على بعد ما بينهما من مستوى الثقافة وهبة الجمال .

وبدا عليها أثر الاجهاد ، فخليتها تستريح ، ومضيت فى طريقى الى البيت ، أفكر فى تلك المحظوظة ، وأحاول أن أستعيد ما كان يصل الى أذنى من أخبارها ، فى مجامع الأسرة وأسمار الأهل .

وتداعت هذه الأخبار وترابطت ، فاذا أمامى منها معالم الطريق الذى سارت فيه « عفيفة » حتى وصلت الى باب المنجم الذهبى !

* * *

ولدت بين أنقاض بيت عزيز ، تهدم حين آل الى أبيها ، وكان الجد قد شيده بما ادخر من كسب حياة عاملة ، قضى شطرها الأكبر ضابطا فى الجيش المصرى بالسودان ، حتى اذا علاه الكبر ، آب الى وطنه يريح شيخوخته ، فكان ضلال ابنه وادمانه شرب الخمر ، مما عكر عليه أيامه الأخيرة .

ولم تدرك الطفلة من هذا العز سوى ظلال ماحلة ، لا تعدو سمعة باقية فى الحى ، وغلاما تابعا نشأ أبوه فى كنف جدها ، فلما مات الجد اشتغل عاملا بدكان حداد ، وبقى ابنه يتردد من حين لآخر على أبناء الضابط المتوفى ، مقبلا — بوجه خاص — على خدمة هذه الحفيدة الصغيرة ، التى طالما خدمها فى البيت الكبير وليدة ثم رضيعة .

وكان أبوها قد هجرها طفلة لم تبلغ سن التعليم ، فعز على أمها

أن تبقيها فى الحارة مهملة مضيعة ، وجاهدت لكى تعلمها ، لكن باعها قصر عن بلوغ الغاية البعيدة ، ووقف بالابنــة فى منتصف الطريق ، لم تكمل من التعليم سوى مرحلة متوسطة .

وسعى لها كريم من معارفها فاشتغلت معلمة فى مدرسة للبنات.

وكبر مقامها فى أعين الناس ، منذ رأوها تسير فى الحى أنيقة متعاظمة ، ومن ورائها « فراش الحكومة » يحمل لهــا كراسات التلميذات .

وتوارى التابع الفقير من أفقها ، وان ظل يرمقها من بعيد بعين الاكبار ، وهى تدخل من باب المدرسة « الميرى » فيقف لها البواب مؤديا التحية ، وتهرع اليها التلميذات يسألنها فى « العلم » .. العلم الذى لم يكن لصاحبنا حظ منه سوى حمل أسفار « الست » ، أيام كانت تلميذة تتعلم !

وقد تشبثت — حين شبت — بتلك الظلال الواهنة التى بقيت من عز أهلها القديم ، فلم تر الا مرتدية أفخر الثياب ، ولا سمعت الا متحدثة عن جاه جدها « البك الكبير » .

ثم عاد التابع القديم فظهر فجأة فى الأفق ..

ظهر ويداه مملوءتان ذهبــا ، جاء ينثره تحت قدمى هــذه « الست » المعلمة .

أين كان ؟

حيث هو لم يغادر الحى ، وانما انزوى فى « الورشة » وقد صارت ملك أبيه .

وجاءت الحرب فتحول الحديد ذهبا نضارا ..

وهنا شاقه أن يتزوج تلك التى بهرته بعلمها ووجاهتها !

لئن لم يصل الى ذاك ، فياخيبة المسعى ، ويارخص الذهب الذى أعجزه تخطى حواجز الطبقات ، وأعياه قهر كبرياء العلم وغرور الوظيفة !

وهكذا مضى اليها مفتونا مغلوبا على أمره ، قد أنهكت عقدة النقص أعصابه وسلبته ارادته ووعيه ، وأنذرته بالشقاء ان لم ينتصر ذهبه على كل اعتبار .

وقد مر فى طريقه على بائعى الوجاهة وصناع الأناقة ، فبدلوه خلقا جديدا ، ووضعوه فى عربته الفخمة انسانا غير الذى كان !

لكنها ترددت !

عز عليها أن تتزوج من كان يوما فى موضع الخادم لها ، وقاومت حينا بريق الذهب ، ثم غلبها آخر الأمر وأغمضت عينيها وأسلمت يدها الى تابعها القديم ، فألبسها هذا الخاتم الثمين الذى انتشرت أشعته فى بركة الفيل ، فكان منها البريق الوهاج الذى خطف الأبصار .

ولم يعد لأهل الحى ولا لزميلات « عفيفة » شغل سوى التحدث عن هداياه اليها ونزهاته معها ، فى سميراميس ومينا هاوس وشبرد .

وكانت أخبارها هذه تصل الىّ من بعيد فلا ألقى اليها بالا ،

حتى اذا كان لقاؤنا الأول بمستشفى العجوزة ، بدأت أفتح أذنى لكل ما يقال عنها .

* * *

وحدث أن سافرت مع أسرتى الى الخارج فى صيف عام مضى فانقطعت عنى أخبارها ، وشغلت عنها بعالم جديد لم تكن صورتها لتبدو فيه ، من مكانها .. ذلك النائى البعيد .

لكنى حين عدت الى وطنى ذكرتها وسألت عنها : أتزوجت هى وانتقلت من بولاق الى حيث يعيش الوجهاء ذوو الثراء ؟!

فأجابنى من يعرفها :

— كلا .. لقد كانت القصة كلها دعابة قاسية .

سألت فى مرارة :

— من الرجل حديث النعمة ؟

قال :

— كلا .. بل من القدر .

لقد لوح لها بسراب خداع ، فجرت اليه مغمضة العينين ، حتى اذا بلغته لم تجده شيئا .

تمثل لها طائرا ذهبى الجناح تعلقت به وهو يتنقـل بها بين نوادى العاصمة وفنادقها الفخمة ، ثم اذا بها تجد نفسها وحيـدة قد أفلت الطائر منها ، وطار !

وتلفتت حواليها فى ذعر ، فألفته بعيدا ، قد تعلق بأخرى سلبته لبه ونهاه ، من بنات الطبقة الغنية ، ذوات العز والدلال .

ونادته فلم يجب ..

وهل كانت به حاجة اليها الآن ؟

لقد فرغ منها منذ أدت دورها المطلوب على مسرح حياته ، وأبرأته من عقدة النقص اذ رضيت به زوجا على ما بينهما من فروق ماثلة ، فحق لثرائه النصر على كل اعتبار .

ان صورتها الى جانبه فى عهده الجديد — وهى التى عرف لأجدادها سيادة على آبائه — قد ألقت غطاء كثيفا على الصورة القديمة ، حين كان يسير وراءها حاملا لها أدواتها المدرسية ؛ ولو لم تتوار هذه الصورة لشوهت مجده المستحدث .

واليوم ؟

لقد آن له أن ينسى ذلك الماضى الذليل كله ، ويندمج فى الجو الجديد الذى نقله اليه حاضره الغنى .

ولن تصلح لأداء هذا الدور ، معلمة فقيرة من بولاق ، كل ما لها حفنة ظلال موهومة من عز قديم ! بل لعلها جديرة بأن تذكره دواما بالذى كان !

وانما تصلح له أخرى من بنات الذوات تجهل كل شىء عن ماضيه ، وتقطع كل صلة له به .

ولم يجد — فى هذه المرة — عناء فى الظفر بمطلبه ، فقد كان فى يده مفتاح ذهبى فتح له أبواب القصور ، فتهافتت عليه رائدات النوادى الفخمة ، مفتونات بثرائه ومظاهر نعمته .

وضن بنظرة واحدة يلقيها وراءه ، على حطام ذلك الجسر الآدمى الذى عبر عليه من حى بولاق ، الى جاردن ستى !

* * *

وعادت المسكينة ، سراب وهم وخدعة أمل ، وحديث سمر ، وعبرة تاريخ !

ورآها من جديد حىّ « بركة الفيل » تسير بغير تابع وراءها حاملة كراسات التلميذات بيد هزيلة ، عاطلة من كل حلية .

لقد بيع الخاتم الجميل كما بيعت كل هدايا الخطبة—وأكثرها ملابس وعطور — بثمن بخس ، كان هو مورد العيش فى فترة المحنة ، وزاد الرحلة المضنية من الجنة الموهومة ، الى المدرسة المغلومة !

ولم يبق للمخدوعة من العز المحدث ، سوى ذكرى سراب لاح ، ثم فني وأفنى معه ظلال العز القديم ..

الصائمة



« لقيتها فى ساحة الحرم النبوى تصلى فى خشوع ، وقد أسدلت خمارها على جبينها ، وأطالت ثوبها الفضفاض حتى مس قدميها ، فاتهمت بصرى ، وظننت أن المسألة لا تعدو مجرد شبه بين هذه العابدة الوقور ، وبين تلك المتصابية التى تركتها فى ديوانها بالقاهرة ، ترشف المثلجات فى ضحى رمضان ، وتلقى على محاضرة عن محنة الصوم فى حر الصيف » .

كدت أتهم بصرى حين رأيتها هناك ، فى ساحة الحرم النبوى الشريف عابدة خاشعة متبتلة ، ذلك لأنى تركتها منـــذ سنوات معدودات فحسب ، فى مكتبها الفخم بأحـــد دواوين الحكومة بالقاهرة ، وكنت قد التمست لقاءها حينذاك كى أرجو على يديها خيرا لزميلة عزيزة ، تشتغل تحت ادارتها .

ولم يطل بنا المجلس يومئذ ، فقد شعرت بما يشبه الصدمة ، حين رأيتها وهى تدنو من منتصف الحلقة السادسة من عمرها ، ترتدى ثوبا من « الدانتلا » تخجل شابة من ارتدائه فى حفلة ساهرة ، وقد صبغت شعرها بصبغة ذهبية ، وطلت وجهها بألوان فاقعة تثير الشفقة عليها .

وأخذ عينى وميض « البروش » الذهبى المعلق على صدرها . فحدثتها على عجل عما يعنينى من أمر صاحبتى ، ثم استأذنت فى الانصراف شاكرة ، لكنها أصرت على أن أبقى لأشرب معها كوبا من شراب مثلج .

قلت واجمة : معذرة فنحن فى رمضان .

فضحكت المتصابية ضحكة جشاء زادتنى نفورا منها ورثاء لها ، ثم راحت ترشف شرابها البارد على مهل ، وهى تحدثنى عن محنة الصوم فى هذا الحر الخانق !

وخرجت من حضرتها وبى بعض الخوف ، فلقـــد لمحت فيها صورة لمصير قاس بائس ، يمكن أن تتعرض له ألوف من أخواتى بنات الأم حواء ، عندما تدركهن الشيخوخة .

وكان ذلك اللقاء آخر عهدى بها فى مصر ، وان سمعت عنها بعد ذلك الكثير ، وكأن رؤيتى لهـا قد جعلتنى ألقى بالى الى ما كانت الزميلات يتحدثن به عن أخبارها :

سمعت أنها اعتزت فى شبابها الدابر بمجد شهادتها الدراسية التى جاءت بها من انجلترا ، وازدهاها أن تظفر بمنصب عال قل من المعلمات فى عهدها من وصلت اليه . وتأبت لذاك على جميع من طلبوا الزواج منها فما كان يرضيها أن تتزوج بمن يساوونها ثقافة ومركزا ، حتى اذا جف ماء الشباب فى عروقها ، وتسربت الحيوية من كيانها ، قررت أن تستجيب لأول طالب من طبقتها فلما لم يتقدم اليها أحد ظلت تتنازل عن شروطها فى الرجل المختار شرطا بعـد شرط ، حتى تواضعت آخر الأمر فعزمت على الرضا بأى مخلوق يرضى أن يتزوجها .

لكنها جاوزت الخامسة والأربعين من عمرها ، ولم يلح فى أفقها المغشى بضباب الكهولة ، رجل ، أى رجل !

وأصبح كل يوم يمضى بعد ذاك ، بمثابة عمر طويل من القهر والعذاب حتى لمحت آخر الأمر ، خيطا رفيعا تشبثت به وهى فى موج الظلمات ، اذ قرأت فى احدى المجلات الأسبوعية اعلانا لطالب جامعى فقير ، يقدم شبابه ومستقبله وحياته ، لأية سيدة تنفق عليه حتى يكمل دراسته العليا .

* * *

ولم تتردد فى الأمر ، بل لم تتوقف لحظة لتستشير من حولها

فى زوجية كهذه ، بين كهلة فى السابعة والأربعين ، وطالب فى الثانية والعشرين يصح أن يكون لها حفيدا .

ويقول الذين شهدوا اللقاء الأول بين الفتى الفقير وعروسه المطلة على الخمسين ، ان ملامحه تقلصت رعبا وهو يحدق فيها مبهوتا مأخوذا ، وقد تثلج الدم الحار فى عروقه ، وتلجلج لسانه فى فمه فما نطق بغير مقاطع ممزقة بلهاء .

وتراجع يريد الفرار ، فلما لم تسعفه قدماه ، رمى بجسده على أقرب مقعد ، على حين راحت هى تلاطفه وتسأله ان كان يرضى بها أما ؟!

وبدأ يجمع نفسه ليصغى اليها حين استطردت تحدثه عما كابدت من أشواق الأمومة المحرومة وتقسم له أنها أزهد النساء فى الرجال وأنها ما كانت لترضى بالزواج لولا اطمئنانها الى أن فتى مثله ، لن يلتمس عندها غير بر الأمومة وحنوها وايثارها .

* * *

هنالك حلت العقدة التى ربطت لسان الطالب ، فتساءل عما اذا كانت تريد أن تتبناه ؟

أجابت فى لهفة مشبوبة بالأسى :

— ذلك أقصى أملى ، لكن هيهات ! ان أهلى لن يدعوا ثروتى تفلت من أيديهم دون أن يطاردونى باللعنة ، ومجتمع « الدواوين » لن يسيغ هذا التبنى ولن يلقاه بغير الرجم والنبذ ، لكن الزواج الصورى ، هو وحده سبيل النجاة !

وضاق الخناق على الفتى فأعلن قبوله ، وتم عقد الزواج ليدرك منذ اللحظة الأولى أنه وقع فى الشرك !

ولم تكن سخرية زملائه الطلاب هى التى أرهقته من أمره عسرا ، فلقد احتمل كل ما أراد لهم عبث الشباب أن يفعلوه به ، لكن الذى لم يحتمله ،أنه ما كاد يضع قيد الزواج فى اصبعه ، حتى أرهقته أمه المزعومة بالغيرة العمياء والسلوك الطائش ، ومزقت أعصابه باصرارها على أن ترتد الى سن المراهقة مسقطة من عمرها ثلث قرن !

وعبثا حاول أصدقاء الطرفين أن يردوا الى الأم الزوجة بعض عقلها ، فما كانت تطيق أن يعاملهــا كأم أو كأخت ، أو حتى .. كزميلة صديقة !

ثم جنت رغبتها فى التزين ، فخلعت ثوب الكهولة الوقور ، وراحت تنفق بلا حساب على صــانعات الأزياء وباعة الجمــال ومزيفى الأعمار ، وكانت تشعر بلذة وحشية ، حين ترى فرقة كاملة من تلميذات « مدرسة الفنون الطرزية » يقضين الساعات اثر الساعات ، منحنيات على تطريز بعض ثيابها . وقد خبا بريق عيونهن الشابة وتقوست ظهورهن الفتية الغضة ، وأذبل العمل الشاق المرهق نضرة صباهن . وكأنما كانت المتصابية تشعر أن الحيوية التى تتسرب من عيون أولئك الصبيات وأناملهن تتجمع فى تلك الثياب التى يطرزنها لها ، فتخلع على جسدها ، المغضن زى الشباب !!

* * *

لكن هذا الشباب المسروق ، وذلك الجمال الزائف المصنوع، لم يزيدا الشاب الا اشمئزازا منها ، وبغضا لها ، وسخطا على الحظ العاثر الذى أوقعه فى شباكها .

وكان بحيث يقذفها بكلمة الطلاق وينجو ، لولا أن عز عليه أن يذهب كل الذى ذاقه من المر والعلقم ، بلا ثمن ..

لقد خسر شبابه من أجل شهادته العليا ، ومن الحمق أن يخسر هذه أيضا ، بعد ذلك الثمن الفاحش الذى دفعه من أجلها .

ولما تململ ضميره يسأله لماذا لا يعف عن مالها ما دام ينوى أن يقذف بها الى عرض الطريق ؟ أجاب شبه مطمئن : أو ليس هذا جزاء من ساومته على شبابه بأمومة كاذبة ، وشوهت أمام عينيه وفى مذاقه ، صورة الحب ، وطعم الزوجية والحياة .

* * *

كان هذا بعض ما عرفت من أمر السيدة المديرة ، حتى لقيتها فى آخر مكان أنتظر أن ألقى مثلها فيه .

لقيتها فى ساحة الحرم النبوى تصلى فى خشوع ، وقد أرسلت خمارها على جبينها ، وأطالت ثوبها الفضفاض حتى مس قدميها .

واتهمت بصرى ، وظننت أن المسألة لا تعدو مجرد شبه بين هذه العابدة التقية الوقور ، وبين تلك الأخرى التى تركتها فى ديوانها بالقاهرة ، خليعة مستهترة ، ترشف المشروبات المثلجة فى ضحى رمضان ، وتلقى علىّ محاضرة عن محنة الصوم فى حر الصيف !

وسبحانه جل فى علاه : يخلق من الشبه أربعين ..

لكنها لم تكد تلمحنى حتى هرعت نحوى تحيينى فى لهفة واشتياق !

ولم أجد ما أقوله ، فوقفت أرقبها وهى تطعم حمام الحمى ، وتحنو على جيران النبى ، وتقدم هدية من المصاحف الكريمة الى خدام الروضة الشريفة ، وتتصدق فى سخاء على كل فقير هناك أو غريب محتاج . ولما دعوتها لتناول الغذاء على مائدتنا ، اعتذرت بأنها صائمة !

ولم نكن فى رمضان ، بل كان شهرنا « رجب » الفرد !

فودعتها وأنا أعجب لتقلبات الليالى بنا وعبث الأيام ..

* * *

وهنا فى « القاهرة » سمعت بقية القصة :

سمعت أن الطالب أتم دراسته ، وكره مع ذلك أن يكفر بيدها عليه فلبث الى جانبها يتجرع كأس المر ، وبدا عليه الزهد فى الحياة الدنيا .

ومضت قطعة من الزمن وهو يمارس العيش ممارسة آلية ، فى جمود يتنفس مللا واعياء ، على حين مضت هى تنفق وقتها فى صحبة محترفات السحر ، وكاتبى الرقى والتعاويذ ، وأصدقاء ملوك الجن ، لعلهم يزرعون محبتها فى قلب فتاها الزاهد الصاد !

لكنهم لم يفلحوا .

وخرج الفتى من دنياها ذات يوم هائما على وجهه ، حتى

وصل الى سمعها آخر الأمر أنه التقى بواحدة من زميلاته فى الدراسة ، زينت له أن ينجو من سارقة حياته ، فأسلم يده للزميلة الشابة حيث مضت به بعيدا .. بعيدا .. الى أقصى المغرب ليبدأ هناك حياة جديدة عاملة .

وراحت المهجورة تعوى فى أثرهما كالذئاب ، وتنـذرهما بالويل والثبور ، ثم همدت ثورتها فجأة كما تهمد شعلة القش ، وسعت نحو الديار المقدسة خاشعة مستسلمة ، تلوذ ببيت الله الحرام ، وقبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، بعد أن عزت الراحة ، ونفدت الحيلة ، وبطل السحر ..

المغتصبة !



((وكم فى جيلنا من شابة اغتصبت باسم الزواج !))

كانت معرفتى بها لا تتجاوز لقاء عابرا فى قاعة الطالبات بكلية الآداب ، أو تحية عجلى نتبادلها حين نلتقى عرضا فى طريق الجامعة، وان كان يلفتنى اليها بنوع خاص ، ظلها الخفيف وسمرتها الجذابة وملامحها الحلوة المعبرة عن نفس ساذجة وقلب طيب .

ثم جمعتنا رحلة الى ساحل البحر الأحمر نظمتها لنا الجامعة فى احدى عطلات منتصف العام . وكنا خمس طالبات ، وقد اقتضى نظام الرحلة أن نعتزل الطلبة فيما عدا الجولات السياحية المشتركة ، وهكذا ألفيتنى أعيش معها نحو عشرين يوما لا نكاد نفترق فى ليل أو نهار ، فما انتهت الرحلة الا وقد صرنا صديقتين أكثر منا زميلتين .

* * *

وكانت رحلتنا فى شهر فبراير ، حيث البرد قارس وليل الصحراء قاس طويل ، يذود برده النوم عن أعيننا ويرهقنا سهدا ونصبا ، فلم تمض ليلة أو ليلتان حتى لذنا بالسمر نستعين به على ما نلقى ، فشهدتنا الليالى المتطاولات نوقد النار فى خيمتنا اذا جن الظلام ، ونسهر عليها لنحييها مخافة أن تخمد أو تخبو .

ومضى بنا السمر المتصل الى أبعد وأعمق غورا مما كنا نقدر ، وألغت الألفة والعشرة كل الذى نصطنعه عادة من تجمل ومداراة وكبرياء ، فاذا بكل منا تفضى الى صاحبتها بما تطوى من هموم ، وتذيع — دون ارادة منها أو اختيار — أعز ما تحرص على كتمانه من سر .

وعرفت حينذاك ما كنت أجهل من حياة « أسماء » :

كان أبوها يعتز بجاه وظيفة ادارية كبرى ، مظهرها أضخم من ايرادها . وقد كلفه ذلك الاعتزاز كل ما دخل جيبه من مال ، اذ أراد أن يكون بثقافته وجاهه ، كفئا لأخ له شقيق ، عاش غير مكترث بالعلم ، فى ضيعته بالصعيد الأوسط ، سيدا أميا عريض الثراء .

ومات أبو « أسماء » دون أن يترك لأرملته الشابة وطفلته الصغيرة شيئا ذا بال ، فشاءت تقاليد الأسرة أن يتزوج العم الثرى من أرملة أخيه الحسناء ، وقد استسلمت هذه للمقدور ، كيما تكفل لابنتها حياة طيبة فى ظل أهلها وذويها ، اذ بدا مما يشبه المستحيل ، أن تعيش أرملة شابة جميلة مثلها ، وحيدة مع طفلتها ، دون أن تثار حولها أكاذيب الظنون وباطل الأراجيف والشائعات !

وعاشت المسكينة فى جحيم ، فما كانت الزوجة الأولى للعم ، وأبناؤها معها ، ليتركوا هذه الدخيلة تنعم بالهدوء فى لحظة من ليل أو نهار ، وهكذا ألفت نفسها محوطة بعصبة من الأعداء ، قد ذهب الحقد بكل ما فيهم من خير ورحمة ، وقذف بهم وراء انسانية الانسان ، فردهم وحوشا ضارية ، تفتك بفريستها فى بطء والحاح ، فلا هى تقضى عليها مرة واحدة فتستريح ، ولا هى ترحمها فترة من الكيد والدس والتنغيص ، فكأنما هو عذاب السعير كلما نضجت جلود المبتلين به بدلوا جلودا غيرها ليذوقوا العذاب .

وكانت خطيئتها الكبرى أنها استسلمت لما أراده عم طفلتها ،

ورضيت من أجل هذه الطفلة أن تضحى بنفسها فتخضع للوضع المذل المهين ، الذى جعلها ميراثا يرثه الأخ عن أخيه الميت .

وهى خطيئة لم تغتفرها الزوجة الأولى ، ولا أبناؤها الذين خافوا أن ترزأهم هذه الشابة بمن يشاركهم فى تراث أبيهم ، فحكموا على « الدخيلة » بعذاب مرير ، لاتموت فيه ولا تحيا !

حتى قضت المسكينة نحبها شهيدة .

وتركت « أسماء » من بعدها لرحمة الأقدار .

* * *

ومنذ ماتت الأم ، رفع العذاب عن الفتاة وأذن لها أن تعيش فى بيت عمها عيشة هادئة فى ظاهر الأمر ، وان ظلت تحس فى أعماقها جرحا غائرا لا سبيل الى اندماله ، فقد غاظها ألا يجد القدر وسيلة لهدوء عيشها الا بأن تموت أمها ، كما لم تستطع قط أن تنسى أنها تعيش بين عصبة من الأشرار ، ما زالوا بأمها يكيدون لها ويضطهدونها حتى قتلوها كمدا وقهرا .

ورغم ذلك استطاعت — على حساب أعصابها — أن تطوى الجرح فى أعماقها ، فما كان لها فى غير بيت عمها مكان .

وسارت بها الأعوام بطيئة مملة ، يدميها جرحها ويئودها ما تصطنع من تصبر ومداراة ، حتى اذا بلغت مبلغ الشباب أوجست خيفة من أصغر بنى عمها ، وكان شابا مدللا رخوا تسيره أمه على هواها بعد أن فارقها اخوته الكبار بالزواج ،

واستقلوا بعيشهم بعيدا عنها . على أنه — فى غفلة من رقابة أمه — تعلق ببنت عمه الحلوة التى تعيش معه ، وراح يلاحقها برغبته فى الزواج منها ، ناسيا أنه باء ببعض الاثم المنكر وشارك فى قتل أمها .

وأرهقتها تلك الملاحقة الى حد فكرت معه فى أن تتخلص بالموت وترقد الى جانب أمها فى سلام ، ثم ما لبثت أن ثابت الى رشدها فقررت أن تستغل عاطفة الشاب نحوها لتبلغ ما كانت تشتهى من السفر الى القاهرة والالتحاق بالجامعة .

واحتالت حتى أثارت انتباه الأم الى تعلق ولدها المدلل بابنة العم ، وهنا جن قلق الأم فقررت أن تبعد هذه الفتاة عن ولدها ، وراحت تلح على الزوج أن يدع بنت أخيه اليتيمة المسكينة تدخل الجامعة ، لعلها تنال شهادة عليا تفتح أمامها باب الرزق عند الحاجة ، وتؤمنها ضد الزمن .

وهكذا فتح أمام « أسماء » ما خيل اليها أنه باب النجاة من ذلك الجو الموبوء الذى كانت تعيش فيه منذ مات أبوها وأمها من بعده ، وان بقيت مع ذاك تحس خوفا مبهما مما يخبئه لها الزمن فى الغد المضمر والمستقبل المحجب بأستار الغيب .

وكان هذا الخوف يرهقها وهى تتحدث الىّ ، فى جوف ذاك الليل البهيم . وحمرة الجمر المتقد تنعكس على وجهها الأسمر المليح فتزيده توهجا وانفعالا ، والريح تلطم خيمتنا المضروبة فى العراء ، وهدير أمواج البحر الأحمر يتناهى الينا من بعيد ، كأنه عزيف مارد من جان .

* * *

وانتهت الرحلة ، ومن بعدها انتهت أيام دراستنا بالجامعة ، فأهمنى أمر « أسماء » حينا ، الى ان اختارتها وزارة المعارف لبعثة علمية فى انجلترا ، فودعتها وأنا مطمئنة الى أنها قد تحررت من همها الثقيل ! .

وعلى هذا الخاطر المطمئن ، تركتها تستقبل دنياها الجديدة على بركة الله ، وشغلت بحياتى الخاصة فما عاد يساورنى قلق على « أسماء » .

* * *

حتى عادت من بعثتها وأنا مقيمة فى الريف لا أزور المدينة الا لماما ، وقد سمعت من احدى زميلاتنا أن « أسماء » تزوجت من شاب ثرى فلم يدر بخلدى قط أن يكون لزواجها صلة بماضيها الشقى

وحرصت على زيارتها اثر عودتى الى القاهرة ، وكنت فى طريقى اليها أتمثل لقاءنا بعد فراق تطاول وامتد سنين عددا ، وأتصورنى جالسة واياها فى بيتها الجديد ، نتذاكر ليالينا الساهرات فى الصحراء الشرقية ذات الشتاء القارس ، ونسخر بالذى كان من خوفها وقلقها وأوهامها ، ونعجب كيف فاتنا اذ ذاك أن ندع الغد للغد ، فلا نضيف الى متاعب يومنا هموماً مرتقبة ربما لا نلقاها .

وتقدرون فتضحك الأقدار . . . .

* * *

ولقيت « أسماء »

لا ، بل لقيت بقية حزينة من تلك الفتاة السمراء الحلوة التى كانت ..

وسمعت الفصل الأخير من مأساتها :

لقد تزوجت من ابن عمها بعد أن طاردها مطاردة ملحة منهكة ، وعبثا حاولت أن تنجو أو تراوغ ، اذ بدا أنه مصمم على أن يقامر بحياته فى سبيل الظفر بها .

ولاذت أول الأمر بالصبر ، اذ كانت تعرف أن أمه لن ترضاها زوجة لفتاها المدلل ، وبخاصة بعد أن مات أبوه وترك له ميراثا طائلا يكفى لاصطياد احدى بنات الأسر ، ذوات الغنى والجاه .

ثم ماراعها الا أن رأت هذه الأم نفسها تشترك فى المطاردة وتلح عليها فى قبول الزواج ، حتى لقد بلغ بها الأمر أن تركت بيتها وضيعتها فى الصعيد ، ونزلت بأحد فنادق القاهرة مصممة على ألا تعود الى بيتها قبل أن تفرح بابنها وعروسه !

وفى لحظة اعياء وملل ويأس ، قبلت الفتاة دون أن ترتاب فى ذلك التحول المفاجىء الذى طرأ على موقف زوجة عمها منها ، بل كان أقصى ما ذهبت اليه ظنونها ، أن الأم اذ عجزت عن اقناع ابنها بالانصراف عن بنت عمه ، آثرت أن تسالم فتأتيه بها بادية الرضا .

كذلك لم ترتب الفتاة فى تلك المرأة ، وهى تندفع متحمسة لاتمام الزواج ، وتختار بنفسها هدايا العروس ، وتملأ الدنيا « زغاريد » فرحة بها .

وقضى الأمر ، وزفت « أسماء » الى ابن عمها فى « ڤيلا » أنيقة بالزمالك استأجرتها الأم للعروسين ، مؤثثة بفاخر الرياش .

ثم لم يك الا شهر واحد ، حتى بدأت العروس تحس أن

مخالب وحش هائل ، تدنو منها رويدا رويدا ، وتهم بالفتك بها .
لقد جاءت الأم بعد شهر العسل لتقيم مع ولدها العزيز ..
جاءت سافرة قد مزقت قناعها وألقت قفازها فى وجه العروس، معلنة حربا لا ترحم .
وقذفتها بالطعنة المسمومة :
لقد كان ابنها مريضا بالرغبة فى الفتاة ، فأحبت أن تبرئه من مرضه ، وساعدته بكل قواها على الظفر بمن يهوى ، والآن وقد قضى منها مأربه ، لم يعد لها فى دنياه مقام !
وكانت الطعنة من القوة والنفاذ بحيث شلت مقاومة العروس، فانطلقت من البيت تعدو فى ذعر ، وقد ملئت رعبا !
وشيعتها قهقهة شيطانية خبيثة ، ظل صداها يتردد فى سمعها ويتبعها حيثما راحت !

* * *

قلت أواسيها :
— أعلى مثل ذاك الغلام الخاسر تحزنين ؟
أجابت وهى لا تقوى على مغالبة دمعها :
— بل أحزن لسذاجتى وحمقى ، وأبكى الفتاة التى تركتهم يغتصبونها باسم الزواج فخسرت كل شىء !
فلم أجد ما أعزيها به سوى أن أقول :
— كلا .. لن تخسرى كل شىء اذا بقى لك ايمانك بعدالة السماء !

العابثة !



((منذ عرفتها وأنا أشفق من سماع قصص العابثات لأنها تذكرني بواحدة منهن، رماها الناس بالاثم ، وهي تعيش شبابها زوجة عذراء ، لا تكشف عن سرها حتى لأمها !)) .

سمعت بها لأول مرة أيام كنت أشتغل معلمة فى مدرسة البنات الملحقة بمعلمات المنصورة ، وقد أرادت « حضرة الناظرة » أن تؤنس وحشة غربتى ، فدعتنى لقضاء أمسياتى الأولى بمنزل أختها فى أقصى الطرف الشرقى للمدينة ، وهناك كانت تتلاقى نسوة الحى ويجتمعن للسمر ، فأصغى اليهن دون أن أفهم كثيرا مما يلكن الحديث فيه !

كنت آنذاك فتاة غريرة ، أنبتتها بيئة ريفية محافظة ، فلم تجرح أذنيها كلمة نابية ، ولا شهدت مثل هذه المجالس التى لا هم لنسوتها الا الحديث عن هذه أو تلك من الجارات والصواحب .

وكانت واحدة بعينها ، هى مدار الحديث الممتد ، ومادة السمر المعاد ، حدثن أنها لاهية عابثة ، خارجة على التقاليد الكريمة ، متمردة على الأوضاع الصالحة ، قد زهاها شبابها ، وغرها حسنها، فاستغلت غفلة فى زوجها ، ومضت كما شاءت وشاء لها هواها ، غير مكترثة بأقاويل الناس عنها ، ولا ملقية بالا الى ما يحوطها من ريب وظنون !

ولست أدرى لم شاقنى أن أرى الشابة الحسناء ولو مرة واحدة ! وكانت رغبتى تلك مشوبة بعطف لعل مصدره بغضى لأولئك النسوة اللاتى يتغذين بلحوم البشر ، ويرتوين من أعراض الناس . غير أنى كتمت رغبتى هذه فى نفسى تحرجا وتأثما ، وان لم أفلح تماما فى خنقها . فلقد شغلت تلك المرأة ساعات ذات عدد

من ليالىّ ، كنت أتمثلها حينا على ما صورتها النسوة لى .. شابة حسناء ، يعفرها التراب وتتواثب من حولها الظنون ، فأشيح بوجهى عنها فى رعب ، فاذا بها تلقانى من الناحية الأخرى ، طيفا رقيقا وديعا ، يذكرنى بالآية الكريمة :

« يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم » .

* * *

حتى لقيتها على غير موعـــد .. ذهبت مع بعض زميلاتى فى احدى صبيحات الربيع ، نلتمس عند شط النيل قاربا يمضى بنا فى نزهة عبر النهر الى « طلخا » ، وكان مقصدنا أن تتجه الى حقل هناك ، فنشترى « الخس » و « الملانة » ثم نطوف ببعض صواحبنا الريفيات ، ليجمعن لنا البيض ، استعدادا لشم النسيم . واذ نحن واقفات قرب النهر ننتظر أن يرسو القارب العائد من الشط المقابل ، لمحنا فيه شابة فارعة الطول ممشوقة القوام نبيلة الطلعة خلابة الحسن ، فتطلعت اليها أملأ عينى منها وهى تثب الى الشط فى رشاقة ، وقد احتضنت باقة من الورود البيضاء وزينت رأسها الجميل بواحدة منها . وظللت أرنو اليها حتى غابت عنى فى عربة كانت تنتظرها على ضفة النهر ، وصواحبى ينادينني فى تذمر وسخط .

وقالت احداهن : « ما نراك الا أعجبت بها ، وقد كنا نحسبك أكثرنا سخطا على مثل هذا الحسن المعروض والجمال السافر

المبتذل . لو رأتك « الناظرة » وأنت تحدقين فيها ملء عينيك وتملئين صدرك من عطرها الفياح ، وتتنفسين أريج الزهور التى زينت بها صدرها فى خلاعة مكشوفة ، أقول : لو رأتك «الناظرة» متلبسة بجريمة الاعجاب بمثل هذه « العابثة » لمضت من فورها الى مفتش المنطقة ، فقدمت عنك تقريرا ينفيك الى أحد الكفور أو النجوع المنعزلة النائية ، حيث لاسبيل اليها الا على ظهور الحمـير ! » .

اذن فقد كانت هى .. هى التى شاقنى أن أراها !

ودلفت الى الزورق دون أن أبدى اكتراثا بثرثرة زميلتى ، وان كنت — فى الحق — قد أشفقت من أن أوصم رسميا بوصمة الاعجاب بامرأة يرجمها الناس بالحجارة !

* * *

وذهبنا فى المساء نزور « الناظرة » عند أختها ، وكانت هذه الزيارة حتما علينا مفروضا . والا عوقبنا بالأعمال الاضـافية المتتابعة ، والالحـاح فى تتبع هفواتنا فى تصحيح كراسـات التلميذات ، وتسجيل حالات تأخرنا عن العمل ، ولو لبضـع دقائق وثوان !

قالت واحدة من النسوة : « أما اليوم فعندى خبر يشترى بالمال ! » .

فاشرأبت لها الأعناق ، وتعلقت بها الأعين وأصغت الآذان ، وهى تروى نبأ جديدا عن « العابثة » : .. أقامت حفلة شاى فى بيتها عصر يومنا ذاك ، ومضى الزوج — الغافل المغفل — فدعا

اليها من شاءت من أعيان المدينة وكبار الموظفين . ثم وقف بالباب يستقبلهم الى جانب زوجته فرحان بها ، مزهوا بمدعويه من السادة الأعيان . وأمضى القوم ساعات حلوة ، حافلة بصنوف المتعة التى تفننت الزوجة فى تهيئتها لهم . ثم انصرفوا وعلى صدر كبيرهم وردة متفتحة ، أقسم بعض المدعوين أن الزوجة هى التى وضعتها خفية فى عروة سترته .

وانصرفت أنا وزميلاتى الى مأوانا بالقسم الداخلى ، وهن يتساءلن عما قد يلحق بى من أذى ، لو علمت « حضرة الناظرة » بما كان منى فى ذاك الصباح .

أما أنا فلذت بمخدعى صامتة ، تساورنى مشاعر متناقضة من سخط وانكار ، وعطف ورثاء .

ومن يومها ، وأنا أذود طيف « العابثة » عن عينى ، فقد كان مجرد التفكير فيها خطيئة من مثلى !

* * *

ومضت سنون حافلة بالمشاغل والشواغل ، باعدت بينى وبين أيام « المنصورة » ولياليها ، وأنستنى — أو كادت — من عرفت فى ذلك الزمن الخالى ، حتى ذهبنا ذات مساء مع جمع من رفاق السفر المصريين ، الى احدى دور السينما فى « ڤينيسيا » وكانت تعرض فيلما عن « خاطئة » . ولما عدنا الى الفندق جلسنا فى البهو قليلا نسمر .

قال طبيب من الرفاق : ذكرنى هذا (الفيلم) بقصة واقعية ، كنت

فيها أكثر من شاهد متفرج .. زارتنى ذات مساء فى عيادتى بالمنصورة شابة حسناء تصحبها أمها . وكنت حديث عهد بالمدينة، لم يمض لى فيها سوى أيام ، فلم أعرف عن زائرتى سوى أنها مريضة تستشير طبيبا مختصا ، وقد فحصتها بعناية ثم أخبرت أمها — على انفراد — أن الزواج قد يكون العلاج المضمون لفتاتها !

فما راعنى الا أن سمعت الأم تصيح وهى تدق بيدها على صدرها :

— الزواج ؟ ياندامة ! انها متزوجة منذ تسع سنوات ياسيدى الطبيب .

وكانت الفتاة قد جاءت على صيحة أمها ، فى اللحظة التى كنت أقول فيها مؤكدا :

— كلا ياسيدتى ، بل هى عذراء ..

وتطلعت — أنا والأم — الى الفتاة لكنها تحاشت نظرتنا ، وقالت فى وجوم رزين : « هيا ياأمى ، الى البيت » ..

وأتبعتها نظرى وهى تسير على وهن ، ووجهها الشاحب يضىء عتمة المساء !

وأرقنى السهد فى تلك الليلة ، حتى اذا تنفس الصبح ، ألفيت ببابى زائرا ، قال انه الزوج ، وقص علىّ قصة ما سمعت بمثلها من قبل .

قال انه عرف زوجته فى مستهل دراستها بالجامعة ، حين كان

يوشك على التخرج . وقد أحبها الحب كله ، واستجابت له بكل قلبها ، ورضيت أن تتخلى عن اتمام دراستها من أجله يوم عقد قرانه عليها ، فاذا الحياة أمامهما أغنية عذبة ورؤيا فاتنة . وقد راحا معا يهيئان العش السعيد ، ويحلمان بالجنة . حتى اذا دنت ليلتهما الموعودة المنتظرة ، روعا بقدر رهيب ، ألقى عليهما حكم الحرمان.

فلقد أصيب الرجل بمرض خفى ، يحول بينه وبين الزواج ، وان لم يبد للناس منه أثر . وعبثا جاول الطب انقاذه ، وضلالا كانت حيل المجربين !

وفى ذلة أليمة ويأس قاتل ، مضى الى فتاته فأفضى اليها بعلته ، وأحلها من العقد الشرعى الذى ارتبطا به أمام الله والناس .

وكان صراع مرهق ... أبت هى أن تمضى ، وأبى هو عليها أن تبقى .

وطال اللجاج وطال النزاع ، حتى أنهتـه هى بيمين حاسمة قاطعة : أقسمت أنها لابد قاتلة نفسها ، اذا هو أبى عليها أن تعيش معه ، فذاك أجدر بحبها ، وطهرها ، وترفعها عن المادة !

وصمت الزوج لحظة يستريح ، ثم عاد يقول :

« وكانت ليلة زفاف ، لم تعرف الدنيا لها مثيلا ! جن فرح الأهل بنا ونحن نبدو كعروسين سعيدين ! وتؤكد هى أنها لم تك فى فرحتها كاذبة ولا ممثلة ، ولولا علمها بما يؤلمنى لكانت أسعد الناس طرا .

أما أنا فكنت أبذل الجهـد الجبار كيلا أصيح من أعمـاق

نفسى الممزقة وقلبى الجريح : أن كفوا يا قوم عن هذا العبث ، فما زواجنا سوى مأساة !

ولعلى أوشكت على الانهيار غير مرة ولكنها كانت فى كل مرة تشد على يدى وترنو الىّ بنظرات ملؤها توسل ورجاء ، وتهديد وانذار ...

وهكذا طوانا العش .. زوجين هانئين فيما يرى الناس ، وان بت — وباتت لى — على هم وحسرة !

وأشهد ما رأيتها فى تلك السنوات الطويلات ، شاكية ولا ضجرة ، بل كنت أنا الشاكى الحزين ، أرى البيت من حولى موحشا قفرا ، فأتمنى لو استطعت أن أمنحها ولدا واحدا يملأ عليها دنياها .

وأدركت هى ما أعانى ، فراحت تحيطنى بالأصدقاء والزملاء ، لعلها تحول بينى وبين الشعور بالوحشة ، والاختلاء بخواطرى المعتمة الكابية .

وكنت بحيث أحتمل أكثر مما احتملت ، لولا أنى علمت فى ليلتى هذه بما حدث هنا فى عيادتك ياطبيب ! خبرتنى به أمها — ولم تك تعلم سرنا — فأحسست أنى مجرم أثيم ، فى حق تلك القديسة ، اذ رضيت لها أن تكبت غريزة أمومتها ، كى تعيش لى ، حتى انتهى بها الكبت الى المرض الذى دفعها اليك .

وقد جئتك متوسلا ، أريد أن أعلم مدى الخطر الذى يهدد زوجتى لو ظلت على هذه الحال من الكبت والحرمان » .

فهونت عليه الأمر ، ورجوت له ألا ييأس من رحمة الله ، ثم تركته يمضى عنى ، وأنا أرثى له ولها .

وعلى مر الأيام اندمجت فى المدينة ، وتعرفت الى أهلها ، ولكم كانت دهشتى وعجبى ، حين سمعت القوم يلوكون سيرة الزوجين ويقذفونهما بأشنع التهم !

كان نادى الموظفين يتحفنا كل ليلة ، بأسطورة جديدة عن عبث الزوجة وغفلة الزوج ، وكان المرضى — من مختلف الأوساط — لا يكادون يأنسون الىّ ، حتى يحذرونى من شباك الصائدة اللعوب !

ومن ذلك الحين وأنا أمقت ألفاظ « الاثم » و « الخطيئة » و « العبث » ... تلك الألفاظ الضخمة الغلاظ التى يلوكها الناس بالبساطة التى يتحدثون بها عن سعر البصل والطماطم والخيار !

ان قصص الخاطئات تذكرنى بواحدة منهن ، رماها الناس بالفجور ، وهى تعيش شبابها راهبة عذراء ، لا تكشف عن سرها حتى لأمها !

***

وصمت الطبيب .

وأقبل عليه القوم يطلبون مزيدا من أنبائها وأوصافها ..

أما أنا فحدقت ذاهلة فى طيف القديسة العابثة ، وقد لاح لى كما رأيتها لأول مرة فى « المنصورة » منذ خمسة عشر عاما ، وهى تثب من الزورق الى الشط فى رشاقة ، نبيلة الطلعة خلابة الحسن ، محتضنة طاقة من الورود البيضاء !

المقهورة !



« وأطرقت واجمة ، وبودى لو أبكى تلك الشابة المزهوة المترفعة التى خنقها الزمن فى بطء وقسوة ، وترك مكانها مخلوقة أخرى ، ضئيلة ذليلة مقهورة .. » .

كنت فى طريقى الى « طنطا » منذ أعوام ، أداء لمهمة رسمية كلفت بها فى ذلك الحين. وبيناكنت أهمّ بالنزول من القطار ، لقيتنى هناك سيدة كريمة أعرفها ، ورجتنى أن أمنحها من وقتى بضع دقائق ، فلما لبيت رجاءها راحت تتوسل الىّ فى ضراعة مؤثرة ، أن أمد يدى لانقاذ فتاتها « سامية » التى لعلى لم أنسها !

ولم أكن قد نسيت تلك الزهرة اليانعة التى رأيتها تتفتح فى منطقة « السرو » شمال شرق الدلتا ، فتنشر فى البرية الماحلة البور أريجها العطر ، وتشع على الأفق المقفر الموحش من حولها سنا وضـــياء .

وليست من بنات المنطقة ، وانما انتقلت اليها فى صـــحبة أسرتها ، عندما عين أبوها رئيسا لتفتيش مصلحة الأملاك هناك .

وتصادف أن زرت المنطقة فى رحلة ارتياد ، فتعـــرفت بالأسرة الكريمة ، ونشأ بينى وبين الصبية الغضة الحلوة ، نوع من الألفة يشبه الصداقة .

لكن الأيام والسنين باعدت بيننا ، وبدا كأنها طوت تلك الصحبة العابرة ، وطوحت بذكراها فى مهواة النسيان .. حتى كان ذلك اللقاء الخاطف بينى وبين أمها ، وقد راحت تصف لى ما تلقى ابنتها من عنت « ناظرة » مدرستها ، وما تعانى من قسوتها واضطهادها . وكانت الأسرة ترجو أن تجد مكانا آخر لابنتها فى مدرسة أخرى بها قسم داخلى ، ولكن المدارس الثانوية الداخلية قليلة محدودة ، وقد اعتذرت جميعا عن عدم قبول التحويل ،

اذ ليس فى احداها أى مكان ، ولم يبق على الأسرة الا أن تستعدى على الناظرة هذا أو ذاك من ذوى السلطان ، أو ترجو الوسيلة اليها عن طريق أحد أصدقائها ومعارفها .. واذ علمت الأم من خبر نشرته احدى الصحف انى فى طريقى للتفتيش على المدرسة ، رجتنى متوسلة أن أفعل شيئا من أجل « سامية » .

وعبثا حاولت أن أعرف من الأم سر اضطهاد الناظرة لتلميذة غضة الاهاب بريئة الصبا ، فقد كانت الأم نفسها لا تعرف عن هذا السر شيئا !

واتجهت وحدى الى المدرسة ، وكان المساء يهبط على المدينة رويدا رويدا ، ويلفها بأرديته المعتمة . وقد شحبت أضواؤها النحيلة ، واختنق الهلال الوليد ، وكفنته سحب ثقال غلاظ ، لم تبق أثرا من شعاعه المحتضر .

وكنت طوال الطريق أفكر فى مسألة « سامية » التى بدت لى كلغز غامض محير . غير انى لم أحاول أن أجهد نفسى بالتماس تفسير لها ، فقد كان ذاك الأفق المعتم حولى ، يضفى عليها وعلى الكون جميعا ظلالا ربداء ..

وأصبح الصبح ، فغادرت مخدعى فى استراحة المفتشات بالمدرسة . ومضيت الى مكتب حضرة الناظرة ، وفى حسابى أن مسألة « سامية » ستكون أولى المسائل التى أعالجها .

ولكنى لم أكد أتخطى عتبة باب المكتب حتى فوجئت بما لم يخطر لى قط على بال .. وجدتنى أمام ناظرتى بمدرسة دمياط

الأولية الراقية التى كنت تلميذة بها قبل ذاك اليوم بنحو خمسة عشر عاما .

وبغتتنى المفاجأة ، فوقفت أمامها أحدق فيها وأستجمع ملامح صورة قديمة ، طالما أسرتنى بجلالها وبهائها ..

وذكرت يوم وفدت حضرتها على بلدتنا لأول مرة ، ناظـرة لمدرستها الأميرية الراقية ، فأثار مقدمها فى البلدة الصغيرة ما يشبه الضجة ، فما رأى القوم من قبلها بين الناظرات والمدرسات ، من تدانيها جلالا ومهابة . ولعلها لم تكن أجمل زميلاتها ، ولكنها كانت لا تكاد تظهر بينهن حتى تكسف ببهاء طلعتها كل جمال ، فتتعلق بها الأعين جميعا وهى تسير مرفوعة الهـامة ، مشرعة الجيد بادية الاعتزاز والترفع .

وأحدث وجودها فى المدرسة ما سميناه « انقلابا خطيرا » فى ذلك العهد ، فقد كنا معشر التلميذات الصغيرات فرقا وأحزابا، لكل فرقة معلمتها المختارة المفضلة . فلما جاءت تلك العـزيزة المترفعة ، انصرفنا جميعا اليها ، وشغلنا بها ، وبدت لنا كل المعلمات الى جانبها تافهات باهتات .

على أن تعلقنا بها لم يجعلها تتهافت علينا كما تعودت المعلمات قبلها أن يفعلن ، بل ظلت فى علاها تفصلها عمن حولها هالة ساحرة من السنا والجلال . ولم يحدث قط أن رأيناها تتنازل فتصاحب احدى المدرسات ، أو تبدى بادرة التفات الى ماتشغل به مثيلاتها عادة من شواغل وهموم ! وبقـدر ما أبدين من حـرص على

الاختلاط بمجتمع البلدة الراقى ، والتعرف الى « ذوات » المنطقة، أبدت هى زهدا فى كل هذا ، وأقصى ما كانت تسمح به هو أن تتقبل آيات الاعجاب بها فى ابتسامة متلطفة كريمة !

ذكرت هذا كله وأنا أراها أمامى على غير انتظار ، بعد أن فرقت بيننا أعوام خمسة عشر ، أما هى فتركت كل ما بين يديها من أوراق ، وراحت تنظر الىّ صامتة مبهوتة ، ثم نهضت فى بطء ، لتحيى فى شخصى ذكرى ماض لها بعيد .

وكنت قد انتقلت فعلا الى ذاك المـاضى ، فلم ألمح ما عرا صاحبتى من تغير ، بل لم أعد أرى أمامى سوى تلك الصورة الرائعة ، تحف بها هالة ساحرة من السنا ، حتى اذا زايلنى أثر المفاجأة ، كدت أنكر هذه المخلوقة التى تجلس أمامى ، وتلقى أوامرها فى صوت صارم أجش !

وجعلت أختلس النظر اليها وقد روعنى ما فعلت بها السنون : سطر الزمن على جبينها المشرق أسطره القاسيات ، وحنا بجبروته العاتى هامتها المرفوعة وجيدها الأتلع ، ومحا بيده التى لا ترحم ، كل ما توج شبابها من بهاء ومجد .

ثم انصرفت عنها فترة الى عملى ، وقد كدت أنسى ما أهمنى من أمر « سامية » ... حتى اذا انتهى اليوم المدرسى تلقيت دعوة كريمة من حضرة الناظرة ، لتناول الغداء فى جناحها الخاص فلبيت الدعوة مغتبطة شاكرة ، وبودى لو رأتنى لدات صباى ورفيقات

التلمذة البعيدة ، وأنا أجلس الى مائدة « الناظرة » التى ارتفعت فى أعيننا عن منزلة البشر .

غير أنى حينما جلست الى المائدة فعلا ، غمرتنى موجة من الاشفاق على مضيفتى ، أنستنى تلك الرغبة الصبيانية فى أن ترانى صواحبى ، اذ كانت المسكينة تتكلف ما لا طاقة لها به من تجمل ومـداراة .

وأردت أن أصرف عنها قسوة الذكرى ، فحدثتها عن رجائى فى أن تشمل برعايتها وعطفها ، تلميذة يعنينى أمرها ..

سألتنى فى لهفة : ما اسمها ؟ فلقد يسعدنى حقا أن أكون موضع رجاء منك .

أجبت : سامية ..

فكأنى قد لطمتها لطمة قاسية ! ومضت لحظة وجوم مرهق وصمت أخرس ، قبل أن تسترد مضيفتى سيطرتها على أعصابها وتقـول :

— تلك البنت التى أفسدها التدليل ؟ لولا خشيتى على بقية التلميذات لما عنانى فسادها أو صلاحها ، وأحسبك تقدرين حرج مركزى كناظرة مسئولة تخشى أن تشيع روح « الدلع » فى تلميذاتها فيتمردن على حياة الجد والاجتهاد .

قلت محرجة : أجل أقدر .. وانى على الحالين شاكرة .

ثم انهيت غذائى على عجل ، وأسرعت الى الاستراحة وقد خيل الىّ أن « دوامة » تلفنى حتى ليكاد يغشانى الدوار .

وفى المساء سمعت القصة الرهيبة : حدثتنى بها صديقة لى من معلمات المدرسة جاءت تمضى معى فترة السمر .

ولم أكن أرجو أن أجد عندها تفسيرا لموقف الناظرة من تلميذة صغيرة ناعمة مثل سامية ، وانما الذى رجوت ، أن أظفر لهـذه الفتاة بعطف هذه الصديقة ، لعلها تستطيع أن تقف الى جانبها فيما سميته يومئذ معركة غير متكافئة بين تلميذة فى السابعة عشرة وناظرة فى سن أمها !

فما راعنى الا أن قالت صديقتى سعاد : صدقت .. هى معركة غير متكافئة ، لكن على غير الوجه الذى تتصورين ! أعنى انها ليست بين تلميذة طفلة ، وناظرة قوية بسنها وسلطانها وجاهها ، وانما هى معركة بين صبا متفتح ، وشباب مدبر .. بين حياة دافقة متوثبة منتصرة ، وأخرى خامدة ذابلة مقهورة !

فلم أفهم ما تعنى ، واستطردت هى تقول :

— فى المأساة رجل ياصاحبتى ، وحسبك هذا لتعلمى حقيقة المعركة . انه مدرس جامعى شاب ناضج ، ذو شخصية قوية آمرة ، لم يكد يضع قدمه على عتبة المدرسة فى مفتتح عامنا الدراسى هذا ، حتى لاحت نذر العاصفة تهدد ما كانت المدرسة تنعم به من سلام .

لقد آثرت الناظرة هذا المدرس بعطفها منذ اللحظة الأولى ، وفضلته على زملائه جميعا ، فحسبنا الأمر لا يعدو أن يكون تقديرا منها لشخصيته القوية ، واعتزازا بهذا العنصر الممتاز الذى يرجى

منه للمدرسة خير كثير . وكان الذى أغرانا بهذا الظن ، أنها — على تلطفها معه — ظلت فترة متشبثة بما تعرفين من عزتها وكبريائها ، حريصة على أن تبقى حيث هى ، متعالية مترفعة !

ولك أن تتصورى مدى دهشتنا ، حين رأيناها بغتة ، تهوى من أفقها العالى الى موطىء قدمى الشاب صغيرة متضائلة !

وليس فينا من كان من شهود ذلك الفصل الأول من القصة ، ومن ثم غابت عنا مشاهد الصراع الخفى ، الذى انتهى بأن أذل كبرياءها وسلبها ترفعها ، وردها مخلوقة مسكينة ضعيفة .

وفى الحق كان الشاب عجيب الاتزان ، يسيطر على حركاته واشاراته ونظراته وكلماته سيطرة كاملة ، لم تخنه قط فى أى موقف ، ولم يدع لأى واحد من زملائه سبيلا الى نقد سلوكه أو تجريح خلقه ، حتى أرغمنا جميعا على احترامه ، رغم كل ما كان ..

وسهل علينا بعد ذلك أن ندرك حقيقة الصراع بينهما : كان يصر على أن يعاملها كرئيسة فحسب ، أو بتعبير أوضح ، كان يصر على أن يتعامل مع شخصيتها الرسمية ، على حين كانت تلح هى فى أن يتجاهل هذه الرئيسة ويتعامل مع الأخرى ..

ولما لج فى عناده ، نزلت عن مقتضيات الرئاسة : فاذا جاء يحدثها فى بعض شئون العمل تخلت على الفور عن « الكرسى » الفخم العتيد ، ووقفت بين يديه بادية الخضوع .

ثم خطر لها أنه قد يكون مشغولا بأخرى ، فراحت تسأل عن حياته الخاصة ، وتفتش عمن عسى أن تكون هناك ، فلما لم تعثر

على واحدة ، راحت تتبعه فى دائرة عمله من قاعة الدراسة ، الى المعمل ، الى المكتبة ، مستريبة بكل كلمة عجلى أو نظرة عابرة .

وكانت تظن أن غريمتها بين المدرسات الحديثات اللواتى لم يفسد العمل الكادح حيويتهن بعد ، فاضطهدتهن بالجملة ، وأرهقتهن بصنوف من الأعمال الاضافية ، حتى أنقذتهن ضابطة المدرسة دون قصد منها .

كانت هذه الضابطة عانسا كئيبة لا قلب لها ، وقد عرفت سر ناظرتها فانتهزت الفرصة السانحة كى تتقرب اليها .

وجاءتها ذات يوم « بمسألة خطيرة » تتعلق بتلميذة فى السنة الخامسة تتمرد على الأوامر وتجرؤ على مخالفة النظم المفروضة ، مباهية بجمالها وكرم منبتها .

ثم همست فى صوت مختنق ابح : وتتناقل بنات القسم الداخلى اشاعة تفسر سلوكها هذا ، وهى أنها خطيبة الأستاذ فلان.

وكانت حضرة الناظرة تصغى اليها أول الأمر دون اكتراث كبير ، فلما سمعت الجملة الأخيرة ، أجفلت مذعورة ، كأنما لدغتها عقرب ! ومن تلك اللحظة جمعت كل قواها ، وهبت تقاتل غريمتها .. ووقفنا جميعا نرقب مهب العاصفة .

فسواء أكانت الصغيرة خطيبة الشاب فعلا ، أم كانت المسألة مجرد اشاعة باطلة ، فانه سوف يتدخل — دون شك — ليحمى خطيبته أو تلميذته البريئة ، من الاضطهاد الظالم ..

أو هكذا خيل الينا أنه فاعل .. لكنه — لفرط دهشتنا —

بقى على العهد به ، هادئاً رزيناً رصيناً ، مالكاً لزمام أعصابه وتصرفاته .

وتطوعت « الضابطة » باسعاف رئيستها ، فالتمست من يكتب للتلميذة خطابات غرامية بتوقيع مستعار ، ثم تلقت هذه الرسائل ساعة وصولها مع البريد ، فعرضتها على حضرة الناظرة ..

وعرضت الناظرة بدورها هذه الرسائل على المدرس الشاب ، تستفتيه فى الأمر وتلتمس منه الرأى والمشورة . فلم يزد على أن قال :

— دعى هذه ، فانها « مكشوفة » .

وانصرف قبل أن تعى المسكينة مغزى ما قال !

* * *

هذه ياصاحبتى هى المعركة غير المتكافئة ، فهل عرفت الآن ، من المنتصر فيها ، ومن المخذولة المقهورة ؟

قلت واجمة : أجل ..

وأطرقت محزونة وبودى لو أبكى تلك الشابة المزهوة المترفعة ، التى خنقها الزمن ببطء ، وفى غير رحمة ، وأودع مكانها مخلوقة أخرى ضئيلة ذليلة .

وأرقنى الهم فلم أنم ليلتى تلك .. حتى اذا طلع الصبح ، غادرت المدينة على عجل ، فقد كرهت أن أبقى مع جثة أنثى عزيزة كريمة ماتت !

وصحبتنى صديقتى سعاد الى القطار ، وهناك سألتنى :

— قد يشوقك أن تعرفى بقية القصة ، فهل أكتب اليك بما يجد ؟!

قلت راثية : أى جديد ياسعاد ؟ ! أوتحسبين أن للقصة بعد هذا بقية ذات بال ؟ ان مصير المسكينة قد تقرر فيما أرى ، فليرحمها الله !!!

المخبولة !



« وتبدد كل ما كنا نشعر به نحوها من رثاء ورحمة ، ورحنا نلعن هـذه المخبولة التى أهدرت كرامة أنوثتنا وحرمة ثقافتنا ، وكأن لم نجد من نحمله تبعة الشـقاء الذى يعانيه جيل الضحايا ، غير هذه التى عثر بها الحظ فتهاوت على درب الحياة الصخرى مسلوبة الرشاد » .

لم أرها منذ سنوات ثلاث ، ومع ذلك أشعر كلما ذكرتها بغصة فى حلقى ، وأحس كأنى أجد فى مذاقى طعم جثة بشرية ، لا أدرى حتى الساعة كيف أسغتها !

وما أكثر ما أذكرها .

انى لأكاد أراها فى كل ما ألقى من بنات هذا الجيل ، بل أحسبنى ألمح صورة منها فى كل أم مثقلة بهموم الأبناء ، فأعجب كيف طاب لى ولبعض زميلاتى ، أن نتسلى حينا بتمزيق لحمها ونهش جثتها ، دون أن نشمئز أو نعف أو نبالى . ولم تحمها زمالتها القديمة لنا من ألسنتنا الحادة ، ولا عصمتها أمومتها من أسناننا وأنيابنا ، كلا .. ولا حال شقاؤها دون قسوتنا عليها وامعاننا فى السخر بخبالها !

فليغفر الله لى ولتلك الصحبة من الزميلات ، حين لم نجد سواها من نحمله تبعة الشقاء الذى يعانيه جيل الضحايا ، ولم يدر بخلد واحدة منا أن تتلو قوله تعالى :

« .. ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ فكرهتموه » .

أو تذكر كلمة المسيح عليه السلام :

« من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر » .

وشهد الله ما كانت بخاطئة ، وانما هو ضعف البشرية فينا زين لنا أن نجد فى ضعف بشريتها ما يثير نقمتنا عليها ! أو هى بقية فينا من عهد الغاب ، وميراث انحدر الينا من آكلى لحوم البشر ، يهيج

فينا أحيانا فنجد لذة فى تمزيق فريسة منـا ، عثر بها الحظ فتهاوت على درب الحيـاة الصخرى ، ممزقة الأشـلاء لا تقوى على مقاومة أو دفاع !

* * *

ولأبدأ القصة من أولها ! .. لم نكن قد سمعنا بها قط قبل أن نقرأ خبر نقلها الى المعهد الراقى الذى نعمل فيه . وقد رحنا ساعة قرأنا ذلك الخبر ، نحاول أن نرسم صورة لها من خيالنا ، اذ كان اسمها وحده « ملاك » يغرى بمثل هذه المحاولة .

وتمثلناها « ملاكا » يخطر حالما كالطيف ، ويتكلم همسا فى صوت عذب كأنه النجوى ، فلما رأيناها بأعيننا أجفلنـا كمن يصحو بغتة من حلم ، ومن ذلك الحين بدأنا ننكرها كأنما كان ذنبها أن تخيب خيالنا فلا تشبه « الملاك » الرقيق اللطيف الذى تصورناه !

لقد بدت لنا يومئذ مخلـوقة كثيـفة المادة ، غليظة الحس ثقيلة الحركة ، تافهة الايحاء .. ولعلنا حاولنا أول الأمر أن ننصفها من أنفسنا ، لكن باعد بيننا وبينها أنها كانت « قاهرية » صميمة ، على حين كانت أكثريتنا تنتمى الى أصل ريفى من قريب أو بعيد .

وأفلح الزمن حيث فشلنا .

فما مضى العام الدراسى ومن بعده عطلة الصيف ، حتى ألفنا وجودها بيننا ، ولم نعد نرى فيها سوى زميلة طيبة القلب ، فيها شىء من السذاجة قل أن نجده فى بنات الحضر ، وبعد أن كنا

نأتمر بها كيلا تحدثها نفسها بأن تسخر من « ريفيتنا » ضرنا نقاوم رغبتنا الخبيثة فى السخرية بها ! .

وأقبل موسم دراسى تال فافتقدناها وحسبنا أنها نقلت الى مدرسة أخرى ، لكن زميلتنا « نعيمة » جاءتنا بنبأ أثار دهشتنا :

— لقد تزوجت «ملاك» من شاب ثرى وجيه نزح جده الأعلى من بلاد المغرب الى مصر ، وكان قد مر بها فى طريقه الى الحجاز ، فلما أدى فريضة الحج طاب له المقام فى جوار المشهد الحسينى ، وبدأ يكافح ليعيش فلم يمض ربع قرن حتى كان من كبار تجار العطارة فى قاهرة المعز .

ومات الشيخ المغربى مخلفا ثروة ضخمة .. ومضى من بعده أبناؤه الذين شهدوه فى كفاحه المرير يطوف بالقرى حاملا خرج العطارة على ظهر حمار هزيل ..

وأتى جيل من أحفاده لم يشهدوا شيئا من ذلك الكفاح الأول ، فأقبلوا ينعمون بثمره وقد غاب عنهم ما تكبد الزارع ليرويه بالجهد والضنى والحرمان .

ومن هؤلاء الأحفاد المنعمين ، كان زوج الزميلة « ملاك » ..

صحنا فى صوت واحد :

ولكن ، أى حظ ساقه اليها ؟

فقالت نعيمة تكمل قصتها : « اسألننى فعندى الخبر اليقين ! لقد كان يتردد على منزل أسرتى الذى أوى جده يوم وفد على مصر شريدا غريبا فقيرا . فلما اغتنى ظل مع الغنى معترفا بجميل

أسرتى ذاكرا ما قدمت له من خير ، حريصا على أن يحدث أبناءه عن أولئك السادة الكرام الذى أطعموه من جوع وأمنوه من خوف وآووه من تشرد واغتراب ! ..

« ونشأنا ونحن نسمع من آبائنا تقديرهم لوفاء الرجل واعجابهم بقوة احتماله وطول صبره وبطولة كفاحه ، لكن هذا لم يكن ليبرر أن يجرؤ واحد من أحفاده على أن يتقدم الى أسرتى طالبا يدى .

« ورددناه فى حزم . فاذا بصاحبتنا ملاك — وكانت تعرفه بحكم ترددها على بيتنا — تقبل عليه فى محنة ذله وهوانه ، وتملأ أذنيه بآيات اعجابها به ، ثم مازالت به حتى تزوجها ! » .

وكتمنا ضحكة ساخرة كادت تفلت من أفواهنا ، اذ كنا نعرف مرض « نعيمة » بداء العظمة ، وطالما أغريناها بمزيد من الحديث عن « بيتها الكبير » وأجدادها « السادة الكرام » لنرى الى أى مدى يجمح بها داؤها ! .

ولم نصدق بطبيعة الحال كلمة واحدة عن خطبة حفيد المغربى لها وزهدها فيه ، فما كان سوى واحد من عشرات سمعناها تذكر أنهم تقدموا لخطبتها ، لكن أهلها السادة الكرام لم يروا فيهم كفئا لها !

وشغلنا بالتندر على نعيمة ، عن صاحبتنا « ملاك » التى ساق لها حظها مثل هذا الشاب الثرى الوجيه ، ولا أحسب أن واحدة منا ألقت بالا الى ما سمعنا من فقر جده ، وان قلنا بأفواهنا ما ليس

فى قلوبنا وتحدثنا طويلا عن عثرة النصيب الذى أوقع زميلتنا فى زوج مغمور الأصل فقير الجـد ! .

* * *

وألفنا بعد ذلك أن نسمع « نعيمة » تأتينا بين وقت وآخر بجديد من أخبار « ملاك » ، وقد أكدت لنا أن زوجها يعاملها باحتقار وينقم عليها أنها « صادته » وهو فى ذهول الصدمة ، ثم سمعنا أنها وضعت غلاما،فما زاد زوجها الا صدا عنها ونفورا منها.

ولم نعجب لحرص « نعيمة » على تتبع أنباء الزوجين ، وكان هذا الحرص وحده كافيا لارتيابنا فى كل ما تقول عنهما ، حتى روعتنا ذات مساء بما سمته خبر الموسم : قالت ان « ملاك » فى المستشفى تضع وليدها « الثانى » وزوجها يزف الى عروس جديدة!

ولم نكذبها هذه المرة ، فقد كان ما تقوله حقـا . وعادت « ملاك » بعد شهر الى العمل !

ورأيناها تكافح لتعيش من أجل طفليها ، وعلى وجهها نور استشهاد . وأحطنا بها نبـارك أمومتها ، ونعينها على الصـبر والاحتمـال .

وشعرنا بالندم على ما كان من ظلمنا اياها أول عهدنا بها .

* * *

ومضت أعوام ثمانية ! وكانت يد الزمن قد امتـدت الى مجموعتنا فبعثرتنا هنا وهناك : اثنتان طواهما الموت وغيبهما الثرى ...

وخمس تزوجن ..

والباقيات تفرقن فى مدارس شتى ، ناظرات ووكيلات !

ومن هؤلاء « ملاك » التى رقيت ناظرة لاحـدى مدارس البنات فى أكبر ضواحى العاصمة .

وكنت أراها كثيرا بحكم الجوار ، وأرى معها بعض الزميلات ممن يقمن فى الضاحية أو يشتغلن فى مدارسها .

وكانت محنتها تثير عطفنا عليها وتجمعنا حولها ، فلقد انتزع زوجها السابق ولديه منها واحدا بعد الآخر ، وحال بينها وبينهما وهى التى عاشت لهما عشر سنين دأبا .

وعبثا حاولت أن تشتريهما منه ، فقد بدا أنه يحقد عليها حقدا خبيثا ، ولا يغفر لها أنها لجت فى مخاصمته أمام المحكمة الشرعية فى قضايا الطلاق والحضانة والنفقة .

***

وأشفقنا عليها وهى تستقبل الفراغ المخيف فى عالمها القفر الموحش ، وأحسسنا بقلوبنا تتمزق ونحن نصغى الى أنينها الفاجع ونلمح نظراتها الزائغة تلتمس أثر الولدين العزيزين اللذين كانا حتى الأمس القريب ملء عينيها ودنياها ! .

ثم راعنا أن أمسكت فجأة عن الشكوى والأنين ، وكتمت لوعتها فلم تعد تتحدث عن فلذتى كبدها .

وتساءلنا فى خوف : ماذا وراء هذا الجمود الرهيب ؟

فجاءتنا « نعيمة » بالجواب : لقد تعلقت « ملاك » بفتى

نصف أمى ، فى الرابعة والعشرين من عمره ، شغفها حبا فنسيت ولديهـا !

قلنا فى انكار :

« أما تكفين عن ملاحقة هذه التعسة » فهزت رأسها وهى تقـول :

« انتظرن ، وسترين صدق أخبارى » .

ولم يطل بنا الانتظار .

فلقد تزوجت « ملاك » فعلا . وهى أم تدنو من الأربعين ، بالغلام الجاهل المغمور .

وتبخر كل ما كنا نشعر به نحوها من رثاء ورحمة ، ورحنا نلعن هذه المخبولة ونرجمها بالحجارة فى قسوة لا ترحم !

وكيف نرحم من أهدرت كرامة الجنس ، وانتهكت حرمة المهنة ، ولطخت سمعة المتعلمات ؟

* * *

واستيقظت فينا بقية نائمة من ميراث الغاب ، فاذا بمخالب حادة تنبت فى أطراف أصابعنا وتمزق الفريسة المخبولة ، واذا بأنيابنا تتحرك فى غيظ وحقد ، لتطحن أشلاءها وتنهش جثتها !

وفرغنا منها — أو هكذا خيل الينا — حين شبعنا من اللحم النيىء ، ونبذناها من مجتمعنا !

ثم اذا بصدى خافت يتناهى الىّ ، من تلك التى حسبتها انتهت!
وأصغيت اليه مروعة ، دون أن أملك صرف مسمعى عنه !

ولو حاولت لعجزت ، اذ كان الصدى على وهنه أقوى من ارادتى .

وقد راح يتلو علىّ ، حديث هذه المخبولة التى أنفقت شبابها كله على ولديها راضية لم تفكر لحظة فى أن تتزوج ، ولا سمحت لطارق أن يجتاز عتبة بيتها حتى لا يروع أمن فرخيها الغاليين !.

ووجدت فيهما ما يملأ دنياها ، وينسيها الذى لقيت من كيد الرجل ونكد الزمن وعثرة النصيب .

وكانت تعرف أن والدهما سوف يستردهما يوما ما ، لكنها تعلقت بالأمل فى أن يرحمهما فيدعهما فى حضن الأم ، ويتخفف هو من عبئهما .

واذ حان اليوم المشئوم ، أدركت أنها تعلقت بوهم ضال ورنت الى سراب خادع ! وغلبها قهرها فراحت كلما جلست الى المائدة ، تمثلتهما جائعين فتقف اللقمة فى حلقها حتى لتوشك أن تختنق بها!

وكلما جن ليل الشتاء الطويل لمحتهما على البعد يرتعدان من البرد فتقذف بالأغطية ، وتجلس وحدها فى الظلام مقرورة تنتفض، حتى لتوشك أن تجن !

وفى تيه الظلمة ، ألقى القدر فى طريقها فتى يتيما محروما ، ماتت أمه فسامته زوجة الأب سوء العذاب ! وأبت عليه أن يكمل دراسته ، ولو استطاعت لأبت عليه أن يعيش .

ولكنه عاش ، والتحق بمعهد حر للفنون ، ثم خرج ليرسم بريشته صورة فاجعة لليتيم المحروم .

وأمام هذه الصورة المثيرة ، وقفت « ملاك » تحدق مبهورة الأنفاس .. ومدت يدها تأسو جرح اليتيم ، وهى ترى فيه ملامح ولديهـا ..

فان تكن مخبولة ، فبعض الذى لاقته يكفى لأكثر من الخبال..

* * *

ثم تلاشى الصدى ..

فتلفت حولى ألتمس صاحبته لأستغفرها ، فاذا بها تنصرف عنى ... هنالك ثبت الى ضميرى وقد تيقظ يسألنى فى صرامة وانكار :

كيف استبحت لنفسك أن تحكمى على هذه التعسة وما أنت سوى بشر مثلها !

وها قد مضت سنوات ثلاث ، وما تزال ذكراها تؤرقنى كلما خطرت لى ببال ...

المحتالة ..



« وأحاطت بها بنـات الحى ، وفى خاطر كل منهن سؤال تود أن تلقيه على العروس المحظوظة : أى سحر جاءها بهذا الخطيب الذى لم تكتحل أعين أهـل الحى بمرأى مثله ؟ ذلك لأنهن كن واثقات أن زواج مثلها من طبيب ، لا يمكن الا أن يكون فعلة ساحر من ملوك الجان، استطاعت هى من دونهن أن تنفذ اليه فى عالمه الخفى ، فسخر لها ما فى طاقته من حيلة وسلطان » .

عندما ذاع فى الحى نبأ خطبتها توافد كل من فيه على بيتها يزجى اليها التهنئة بالخطبة السعيدة ، ويطلب صندوقا من الحلوى وزجاجة كاملة من الشراب ، فما يشهد الحى مرتين زواج احدى فتياته من طبيب !

وأحاطت بها لداتها : بنات « عم متولى الخبـاز » اللائى يسكن معها فى منزل واحد ، وبنت المعلم « حموده » جزار الحارة، وأخوات « الأسطى حسونة الحلاق » « والشيخ عتمان » المقرىء المعروف فى الدرب كله ، وبنت « الشاويش عليوه » عسكرى النقطة .

أحطن بها ، وفى خاطر كل منهن سؤال تود أن تلقيه على العروس المحظوظة : أى سحر جاءها بهذا العريس الذى لم تكتحل أعين أهل الدرب بمرأى مثله ؟ ذلك أنهن كن واثقات أن زواجاً كهذا لا يمكن أن يعقد ، بغير عقدة من ساحر ماهر ، عنده سر هاروت وماروت .

ولم يستطع ثلاث منهن أن يكتمن السؤال طويلا فهمسن به الى « حسنية » فى حذر فلم تجبهن بغير جواب واحد :

— انه حظ ! ثم لاتنسين أن الطبيب قريبى ..

حظ ؟ أى حظ ذاك الذى طاف بمساكن الدرب جميعا ، فلم يجد سوى « حسنية » ليلقى بين يديها تلك اللقطة العجيبة النادرة، ويدع لسواها حثالة الخطاب ، أمثال ابن السمكرى وصبى الحلاق والجـزار ؟

وتقول انه قريبها ؟ متى كانت القرابة شافعة لمثلها عند مثله ؟ وهل سمع الناس بوجيه عالى القدر ، يذكر أن له قريبة فى حى فقير منبوذ على أطراف المدينة ، فيمضى ليلتمسها زوجة هناك .

لقد كان شيء من هذا معقولا لو أنها ذات شباب ناضر وجمال أخاذ ، أما و « حسنية » كما يعرفن قد أدبر شبابها أو كاد ، دون أن تلفت نظر أحد أبناء الحى ، فهل يكون زواجها من الطبيب الا فعلة ساحر طمس عينى الشاب ، أو هدية ملك من ملوك الجان استطاعت هى من دونهن أن تنفذ اليه فى عالمه الخفى ، فسخر لها ما فى طاقته من نفوذ وسلطان ؟!

وائتمرت نسوة الحى — من أمهات العذارى — فيما بينهن ، ليكشفن عن السر الخطير ، فرحن يتجسسن على كل زائر لبيت « حسنية » وزائرة ، واتخذت زوجة متولى الخباز مكانها المختار عند نافذة تطل على مسكن العروس ، وتوكلت حـرم « المعلم حمودة » بالباب ترصده وتحصى الخارجين منه والداخلين فيه ، وأقسمت أخت « الشيخ عتمان » لتأتين صواحبها بالسر ، فان أخاها يدخل كل دور الحى ليقرأ القرآن ويهبه للموتى ، ويستطيع بلباقته وفطنته أن يعرف ماذا هناك ، أو لا فانه يستعين بالأحجبة والأدعية ، حتى يكشف الغطاء عن السحر العجيب !

ولم يكن الذى بهؤلاء جميعا لونا من الحسد ، وانما أردن أن تجاملهن بنت الجيران فتدلهن على نوع الشباك التى صادت هذا الصيد الثمين ، كى ينسجن على منوالها لبناتهن وفيهن من

هى أجمل من « حسنية » وأنضر شبابا وأرغد عيشا وأعز نفرا .. وكان هذا فى عرفهن ، حقا عليها محتوما وواجبا مفروضا ، فما يجوز لها أن تكتم عن صواحبها سرا قد يسوق اليهن مثل ما ظفرت به ، دون أن يؤذيها ذلك أو ينقص من نعمتها مثقال ذرة !

وأوشك غيظهن منها أن ينقلب الى حقد مرير يغرى بالكيد لها ، لولا أن « الشيخ عتمان » طاف بالبيوت ذات صباح فى جولته المعتادة ، فهمس الى كل امرأة منهن بما عنده من علم : ان أمير الجن قد حذر « حسنية » من افشاء الحيلة التى جاءتها بالطبيب ، وأنذرها بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ان هى خانت العهد وأذاعت السر ! .

ومن ذلك اليوم ، كفت النسوة عن التعرض لها والتجسس عليها ، وانطوت عذارى الحى على شبه يأس ، وعادت أحلامهن تخايلهن بابن الخباز وصبى الجزار ، فكن يصحون من النوم فزعات مرهقات ، يحمدن الله أن نجاهن باليقظة ، من ذلك الكابوس البشع .

والواقع أن زواج « حسنية » من طبيب قد زلزل الدنيا تحت أقدامهن وأفسد عليهن طعم الحياة ! لوح لهن فى مبدأ الأمر بأمل كاذب أن يتاح لهن مثل الذى أتيح لها . فلما أدركن أنه السراب ، وأردن أن يستأنفن سيرتهن الأولى ، ألفين الحياة أقل بهجة مما كانت ، وأقل اشراقا ورواء ، وما زلن فى حيرة من الأمر حتى أدركن أخيرا أن شيئا عزيزا قد ضاع منهن : فقدن القناعة

بالموجود ، والرضا بالمقسوم ، فأصبح مجرد التفكير فى أنهن قد يتزوجن يوما من هذه الحثالات البشرية ، وبعد أن تزوجت زميلتهن بطبيب ، محنة لن يكون الموت معها الا أملا يشتهى !

* * *

كانت « حسنية » صغرى أخوات أربع ، ولدن على التوالى لأب شيخ يشتغل عريفا لكتاب ذاك الحى المنزوى ، وقد أتاح له حفظه للقرآن الكريم ، واحاطته ببعض العلم مكانة محترمة بين أهل الجيرة ، وهم جميعا أميون لا يفكون الخط ! فكان اليه مرجعهم فيما يشكل عليهم من أمور دينهم ، ومنه كانوا يلتمسون البركة والدعاء بوصفه حامل كتاب الله جل شأنه وعلا .

وعلى يديه تعلمت بناته الأربع مبادىء القرآن والكتابة ، وبمعونته استطعن أن يكملن الدراسة فى المدرسة الأولية للبنات بنجاح ملحوظ ، وقد التحقت كبراهن بمدرسة القابلات وتخرجت منها تحمل شهادة مولدة قانونية ، أما الثلاث الأخريات فصادفت فترة تخرجهن من المدرسة الأولية ، أعوام قحط كانت نظارة المعارف تشكوه فى المعلمات ، اذ كان عليها — خضوعا لتوجيه الاحتلال البريطانى — أن تنشر الكتاتيب والمدارس الأولية فى الأحياء والقرى ، لتقاوم فكرة الجامعة التى كانت لا تزال فى مراحلها الأولى ، ولم تكن مدارس المعلمين والمعلمات — وهى اذ ذاك محدودة — بحيث تستطيع أن تخرج للنظارة عددا من المعلمين يكفى لمواجهة ذلك التوسع فى التعليم الأولى ، وعندئذ فكرت النظارة — أو فكر لها الاستعمار — أن تنظم دراسة صيفية

للمتخرجين فى المدارس الأولية . ونفذ المشروع العبقرى ، فكانت الفصول الصيفية تتلقف تلاميذ المدرسة الأولية عقب تخرجهم فى شهر يونيه ، لتوردهم فى شهر سبتمبر معلمين بمدارس الحكومة بعد تدرب يستغرق بضعة أسابيع ابان صيف مصر القائظ !

وكانت « حسنية » وأختاها من بين هؤلاء تخرجن معلمات فى مدارس البنات ، يخطرن فى الحى رائحات غاديات ، فتكاد العيون أن ترتد عنهن مهابة واجلالا !

ولم يجرؤ شبان الحى على التفكير فى الزواج منهن ، فان أقصى مكانة أحدهم أن يعمل أجيرا بعشرة قروش فى اليـــوم ، وأقصى حظه من نور العلم — والعلم نور — أن يفك الخط ، فكيف يطمع مثله فى أن ترضى به معلمة (قد الدنيا) تنورت وحفظت العلم ولها مرتب شهرى مضمون غير مقطوع ولا ممنوع، الا فى احدى حالين : الزواج أو الموت ؟

وهكذا حكم مجتمع الحى على الشقيقات الأربع أن يعشن عوانس، لم يفكر فى أن يجبر خاطر احداهن بخاطب يشعرها — مهما يهن أمره — أنها لم تنبذ من حظيرة الأنوثة وتمسخ رجلا ! وظن المجتمع أنه يكرمهن اذ يمسخهن رجالا ، ويزجى اليهن فى كل مناسبة اعجابه برجولتهن !! وما درى أنه بذاك قد حكم عليهن بما هو أقسى من الموت !

كن أشبه بقطيع ينتظر كل واحد فيه دوره ، ليمضى الى مصيره الرهيب دون أن يجد منه مهربا .

وقد بلغت الأولى سن اليأس .. ولحقت بها الثانيـة .. ثم أدركتها الثالثـة . وجاء دور الرابعة فهى ترقب فى جزع ورعب وقلق ، تسرب البقية الباقية من شبابها الذاوى لتلحق بأخواتها فى تلك الصحراء القاحلة الماحلة ، حيث لا ظل ولا ماء وانما حسرة العمر وظمأ السنين !!

وفى الحق لم يكن لديها أمل فى أن تنجو ، فان وجود أخواتها الثلاث أمامها كان وحده كافيـا لأن يميت فى قلبها كل أمل ، ويخمد الذى بقى فى كيانها من حرارة الحياة ! ولطالما أمضت الليالى مسهدة تحدق خلال الظلام فى هذه المخلوقات الثـلاث الراقدات الى جوارها صفا أشبه بكتل هامدة .

وكانت تشعر أحيانا بطائف شرير يطوف بمضجعها ويغريها بأن تهب فتوقظ هؤلاء الهامدات ، لتسألهن فى مرارة وغيظ : كيف يطيب لمثلهن النوم ، والموت بهن أجمل ؟!

ثم تثوب الى رشدها فتأخذها رحمة عليهن ، أو على نفسها فيهن ، وتشفق من غد قريب يأتى فتحرم هى مثلهن من نعمـة السهاد ، وتسلب هذه العلامة الوحيدة الباقية لها من علامات الحيـاة !

* * *

ثم كان ما لم يخطر لأحد على بال ! حتى « حسنية » نفسها لم تجرؤ يوما على أن تحلم بالزواج من أى مخلوق ! رجت يوما أن يتزوجها شيخ متصاب فى السبعين من عمره ، جمع ثروة لا بأس

بها من كتابة الحجب والتمائم وتأويل الرؤى ، وكان يبدى كثيرا من الود (لحسنية) ويتردد على أسرتها زائرا متلطفا ، ثم ظهر أن كل ما يبغيه هو أن يستعين بها فى قراءة بعض ما غمض عليه من كتب تفسير الأحلام ، بعد أن كلّ بصره وخبا من عينيه الضياء!

* * *

كيف تم هذا الزواج الشبيه بمعجزة ؟ قيل انها حيلة ساحرة !

وقيل انها عرفت هذا الطبيب أيام كان لا يزال طالبا فى القصر العينى ، وقد ذهبت الى القصر يوما تلتمس علاج أبيها من علة أنهكته ، وكانت تحمل الى الشاب توصية من عم له يشتغل مفتشا عليها بوزارة المعارف ، فأحسن الشاب لقاءها وبخاصة بعد أن عرف أن بينهما ما يشبه القـرابة من بعيد . وظـل الفتى يرعى مريضها حتى برىء من علته ، فلم تجد ما تثيب به (الدكتور) على ما قدم لها من خير ، سوى أن تتطوع باعطاء درس لأخيه الصغير الذى كان يستعد لامتحان الشهادة الابتدائية .

وتوثقت الصلة بينهما ، على أنها لم تتجاوز فى بادىء الأمر تلك الدائرة المحدودة ، حتى وقع الشاب فى ورطة مالية هددته بالقضاء على مستقبله ، فمدت الفتاة اليه يدها وفيها ثلاثمائة جنيـه ، ادخرتها هى وشقيقاتها فى صندوق التوفير .

وشق عليه فى مستهل حياته العملية أن يؤدى ما عليه من دين مسجل فى وثيقة حل موعدها ، فكان الزواج مخلصا أبرأ ذمته من كل دين سابق ولاحق .

وزفت اليه العروس دون أن تكلفه قرشا واحدا ..

وحملت اليه فيما حملت من الجهاز ، أثاث « عيادة » استغرق ثمنها كل ما كانت الأسرة تدخره لتقلبات الزمان !

* * *

وغابت « حسنية » عن الحى عامين اثنين فى برارى الشمال ، لم يعرف من أنبائها سوى ما كانت أخواتها ينشرنه هنا وهناك من وصف ما هى فيه من نعمة وراحة بال !

وكان هناك سؤال يتردد فى بيوت الجيرة فى الحاح : أما رزقت — اسم الله عليها — بولد ؟

فتقول أخواتها : « انها حامل » ... ثم يشيع فى الحى أنها ألقت حملها قبل أن يتم ، ثلاث مرات تباعا ! وانقضى عامان آخران ، لم يكن لأخوات حسنية خلالهما حديث الا عما ساقه الله الى زوجها الطبيب من رزق واسع ممدود : ان عيادته لتدر عليه فى اليوم الواحد ما يكفى لأن يعيش به الحى كله شهرا كاملا !

والحق أن الطبيب أصبح فى تلك السنوات المعدودات ، ذا ثراء ضخم جمعه من المرضى فى تلك المنطقة النائية المحرومة من الطب والدواء .

* * *

وذات مساء شاحب ، وبينا نسـوة الحى واقفات بأبواب مساكنهن ينادين صغارهن المبعثرين فى الأزقة ، شهدن عربة تشق طريقها فى الحارة بجهد وعناء ، ثم تقف فتنزل منها « حسنية »

وحدها واجمة شاحبة وفى أثرها شحنة من المتاع !

وتركت النسوة ما بأيديهن وهرعن الى بيتها يهنئن بسلامة الوصول ، ثم رجعن يقسمن لأزواجهن أن وراء عودة «حسنية» لأمرا ذا بال ! .

وصدق قسمهن .

لقد طلقت « حسنية » .

لفظها الطبيب بعد أن أقبلت عليه الدنيا ، وفتح له « المجتمع الراقى » أبوابه ليختار من تحلو له من زهراته ذوات الحسب والنسب .

وعادت « حسنية » تحمل فى جسدها علة مزمنـــة من أثر الاجهاض المتتابع ، وتحمل فى قلبها جرحا غائرا ، من فرط ما لاقت من اذلال المجتمع الراقى ، وزوجها الطبيب !

عادت فأخذت مكانها المعهود الى جانب أخواتها الثلاث ، وقد بطلت حيلتها وشاقها أن ترقد ملء الجفون كما ترقد أخواتها ، بغير سهاد !

الراهبة !



((خلقكم من نفس واحدة)) .

حين رأيتها للمرة الأولى لم يلفتنى اليها لافت خاص . ولم يثر انتباهى شيء بعينه . وكادت تمر من أمامى مرورا عـابرا ، وتختفى فى غمار الدنيا كما اختفت وتختفى آلاف أخريات ، يعبرن بى ثم لا يتركن من ورائهن أثرا .

ونسيتها أو خلت أنى فعلت .

حتى رأيتها مرة ثانية ، وكانت قد جاءت الى « الكلية » التى نعمل بها لتعود بنت أخيها ، وهى زميلة لنا عزيزة ، وفدت من احدى قرى لبنان ، واستوطنت مصر من زمن ، عاملة بمدارس البنات .

وكنا جالسات حول سريرها ، حين جاءت عمتها تعودها ، وأحسبنى لم ألق بالا اليها بعد أن تبادلنا التحية التقليدية . وقد جلست ما جلست،تثرثر وتلغو وأنا بعيدة عنها وان جمعنا مجلس واحد فى مكان واحد.حتى اذا انصرفت عنا سألتنى المريضة فجأة:

— هذه عمتى ، ما رأيك فيها ؟

فألفيتنى أجيب على الفور :

— ما أراها تلائم زيها !

وكان جوابا عجيبا أنكرته أذناى ، فما حسبت أنى فكرت فى هذه العمة أو ألتفت اليها ، فكيف ومتى كونت لى رأيا عنها ؟ كيف ... ؟ ومتى ؟

وعادت المريضة تسأل :

— فأى زى يلائمها فى نظرك ؟

فاذا جوابى سريع حاضر :

— لو أن لى أن أختار لها الزى الذى يناسبها ، لنزعت عنها ثوب الرهبنة الفضفاض ببياضه الناصع ، وسواده الحالك ، وأخرجتها من المستشفى الألمانى الذى تشتغل بالتمريض فيه ، ثم سرت بها الى .....

وأمسكت لا أكمل ...

وعبثا حاولت المريضة ، وحاولت الزميلات الأخريات ، أن يحملننى على اتمام الجواب وهل كنت أستطيع أن أفعل ؟

لقد كان خاطرا قاسيا هيأ لى أنها تصلح للاشراف على ممرضات مستشفى العباسية وترويضهن ، وانقاذ مريضات العقل من قسوتهن الجاهلة ، وسلطانهن الشرير الغشوم .. على انى لم أحدث بهذا الخاطر سواى ، ومضيت الى غرفتى وما تنفك صورة الراهبة تتراءى لى غريبة فى ثوب الرهبنة الفضفاض ، وما زال السؤال يملأ سمعى فى صمت الليل : كيف ومتى كونت رأيا فى هذه « الراهبة » وما التفت اليها من قبل ولا فكرت فيها ؟!

ومضت قطعة من الليل وأنا فى شغل بها : أغير ملابسها ، وأبدل عملها ، وأنقلها من مكان الى مكان وكأنى موكلة بها ، أو كأنها شخصية مسرحية ، عهد الىّ فى اختيار ما يناسبها من زى وما يلائمها من عمل .

وألفت أن أراها بعد ذلك من حين الى حين ، فى الكلية أو فى المستشفى ، فكنت أتأملها فى وجوم ساهم وأنا لا أكاد أملك أن أغير رأيى الأول فيها ، واختيارى القديم لها .

وزال عجبى بعد حين ..

فما كان الناظر اليها بحاجة الى تأمل طويل ليرى أن لها ملامح صارمة ، لا ظل فيها للوداعة الجديرة بأن تشيع فىوجوه الراهبات. وما كان المستمع لها بحاجة الى تنبه يقظ ليميز فى صوتها نبرات حادة رفيعة ، لا أثر فيها للهدوء العذب الذى تسكبه فى آذاننا تراتيل الكهان وصلوات العابدين ، وما كان القريب منها بحاجة الى تفرس دقيق ، ليلمح ما يسود حركاتهـا وسكناتها من قلق وانفعال ، أين منهما السلام الذى تسبغه الرهبنة على هؤلاء الذين خرجوا من الدنيا ونفضـوا أيديهم من مشـاغلها ومتاعبها ، ورحضوا أنفسهم وأرواحهم من أشواقها وهمومها !

كلا كلا .. ما هذه براهبة ، فمن تكون ؟

سألت من يعرفونها هذا السؤال فما ردوا جوبا ، وعدت أسأل بنت أخيها ما الذى جعل العمة تنحرف عن طريق الناس وتمضى الى الدير ، فما حدثتنى عنها يومذاك بما يغنى : « انضمت فى عز شبابها — فى عامها الخامس والعشرين — الى الراهبات الألمانيات، وتلقت على أيديهن فن التمريض حتى برعت فيه ، فأرسلت مع جماعة من زميلاتها الراهبات ، ليعملن فى المستشفى الألمـانى بالقاهرة عاصمة وادى النيل » .

سألت وقد استحال عندى أن يزهد شباب الحياة فى الحياة بغير سبب :

— هكذا ، طائعة مختارة ؟

فكان الجواب :

— نعم نعم ، لنفسها اختارت ، وبنفسها ذهبت .

فبدا لى أنها لا تفهم ما أعنى ، وتركت السؤال والجواب ، وخليت الراهبة تمضى لشأنها ، منصرفة عنها الى ما كان يزحم حياتى من مشاغل وشواغل .

* * *

ثم لقيتها بعد أعوام ..

وكانت تمضى فترة نقاهة فى دار صديقة لهـا من صواحب صباها ، تعيش وحدها فى شيخوخة موحشة بعد أن مد الزمن يده الى قومها فمزق شملهم وبعثرهم ذات اليمين وذات الشمال : طوى زوجها فى الثرى ، وغيب ابنها ثم أختها فى غيابات الظلام ، ومضى باحدى ابنتيها الى الشرق الأوسط ، وهاجر بالأخرى الى أمريكا الجنوبيـــة .

وقد جمعتنى بها رابطة الجوار ، وقربتها منى عاطفة قوية من الرحمة بها والاشفاق عليها والاعجاب بما فى شخصيتها من قوة وصلابة واحتمال . ولم أكن أعلم أن « الراهبة » اصطفتها من بين الناس جميعا واتخذتها فى الغربة أهلا ، حتى جاءت الى هنـــاك تستريح ، ولعلى احتجت الى شىء من الشجاعة وأنا أنظـــر الى هيكلها الشاحب الهزيل وأصغى الى صوتها الحاد الرفيع ، لكنى ما لبثت أن ألفتها ، وتعودت أن أرقب مجيئها لزيارة جارتى كل ثلاثاء — يوم راحتها الأسبوعية — فنمضى ساعة أو بعض ساعة

أستمع اليها وهى تحدثنى عن مشاغلها ومسئولياتها ، وتفضى الىّ بهمومها ومتاعبها ، حتى اذا اقترب موعد رجوعها الى العمل ، هرولت تعدو الى المستشفى وهى بادية القلق على من خلفت هناك من مرضى لا تدرى ماذا ألم بهم فى غيبتها ، وماذا أصابهم من عبث أو اهمال .

وأخذت تدنو منى رويدا رويدا ، فصرت أجد فى لقائها لونا من الأنس ، وأحس شيئا من المتعة وأنا أرقب « حواء » بكل عواطفها وأهوائها ، تضطرب وراء زيها الجـامد الفضفاض ، وان خيل اليها حينا والى أكثر الناس من حولها أحيانا ، أنه يخفى كل ما تحته ويذهب بكل ما وراءه ..

* * *

ثم سمعت الفصل الأول من المأساة ..

كان ذلك فى أصيل يوم واجم من أيام الخريف ، وقد جلست أنظر اليها وهى تحدق ساهمة فى الأوراق الجافة التى تترنح على الأغصان ، ثم تهوى على أرض الحديقة الصـغيرة بالمنزل ، فى حشرجة مكتومة مختنقة ، وكانت نذر الشتاء تلوح على الأفق وتبعث فى جونا ضبابا خفيفا من الكآبة ، وقد أخذت صـفرة الأصيل تخبو وراح النهار المتعب يسلم نفسه الى مساء مقبض مرهوب .

ومضت فترة طويلة يغشاها صمت كئيب ، قبل أن تلتفت الراهبة الىّ ، وتسألنى فى صوت واهن :

— هل رأيت انسانا يموت ؟

قلت فى ايجاز وأنا أتأمل وجهها الشاحب :

— كلا .

فألقت المنظار عن عينيها وأغمضتهما فى اعياء ، ثم راحت تقول فى بطء مرهق :

— أما أنا فأرى ذلك كل حين ! أرى كيف تنطفىء شعلة الحياة وتغشى الجسد صفرة الموت وتفوح منه رائحة البلى ؟! هى لحظة واحدة ، يحور فيها الانسان — سيد الأرض ومخضع الكائنات ، ومسخر العناصر والقوى ، وقاهر البر والبحر والجو — رمة بالية نتنة ، فاذا الدنيا جميعا تنكره وتضيق به وتأباه ، وتنبذه على أيدى أعزائه وأحبابه ، فى سجن سحيق تحت أطباق الثرى . ما فى الحياة يابنتى أبشع ولا أفجع من هذا المصير .

قلت وأنا أجاهد للتخلص من عدوى انقباضها واكتئابها :

— ما يحس الميت شيئا مما ترين ياأماه ..

فردت فى مرارة :

— لكننا نحسه ، ونرى فيه بأعيننا مصيرنا الرهيب المحتوم ، آه ليتنا كهذه الأوراق التى تتألق فى الربيع مزهوة بالحياة ريا بالشباب ، فاذا ما ألم بها الخريف جفت ثم تساقطت فى احتضار هين وديع . أوليتنا كالهنود يحرقون البدن ساعة تموت الحياة فيه ، فاذا هو تراب مبدد ، ما رهقته غبرة ، ولا فاحت منه رائحة ، ولا عاث فيه دود ، ولا احتواه ظلام !

روعتنى هذه الخواطر الكابية الربداء التى تلم بالراهبـة ، وأحسست ما يشبه الخوف وأنا أتابع تلك المشاهد المكتئبة التى مضت ترسمها أمام عينى ، فقلت وأنا أحاول أن أخرجها من ذلك المأتم الرهيب :

— لو ذكرت يا أماه كم يقاسى الحى من هموم وآلام ، وكم يلقى من محن وكروب ، لرأيت فى الموت راحة لمن أثخنتهم جراح العيش ، وعزاء لمن فقدوا فى الأرض العزاء ..

فمضت تتأملنى فى تفرس صارم ، وبدا عليها أنها تحاول أن تجد وراء كلماتى معنى أستره أو مدلولا أخفيه ، وأحسبها قد وهمت أنى أريد حملها على الافضاء الىّ بسرها الخاص ، فقلت وأنا أواجه نظراتها فى ثبات :

— لا شىء ياأم ، سوى أن من أدواء الحياة ما يكون الموت شفاءه الوحيد . وبحسبك أن تذكرى أن فى الحياة ما هو شر من الموت ، ليهون عليك ما يهولك من شأنه .

فأعادت وهى تتماسك :

— فى الحياة ما هو شر من الموت ؟!

أجبت فى قوة :

— أجل يا أماه .. ما يشتهى من أجله الموت .

فأمسكت دموعا ترنحت فى مقلتيها ، وقالت مسلمة :

— أعرف ذاك ..

وبغتة رقت ملامحها ، وضلت نظراتها ، وأسلمت وجهها الى كفيها فى تخاذل وضعف ، ثم راحت تتكلم :

« كانت فى الحادية والعشرين من عمرها حين رأته للمرة الأولى . رأته فى غرفة المستشفى بالقسم الداخلى فى جامعة « بيروت » يضمد لها جرحا أصابتها به زلة قدم فى سباق رياضى على سفح الجبل . وقد عرفت فيه — من اللحظة الأولى — فتاها الأوحد ، وأحست وهى تتأمله من وراء قناع الجد الذى كان يرتديه ساعة انحنى على جرحها ، أن القدر يقف فى هذه الآونة ليوجه مصيرها وجهة جديدة ، ويسجل تلك اللحظة الحاسمة التى جمعتها به .

من هو ، ومن قومه ؟ ما وطنه ، وما ظروفه ؟ من أين جاء ، وأين يعمل ؟ أسئلة لم تكن تعرف لها جوابا ، ولا عناها حينذاك أن تعرف . شغلت عن : من ، وما ، وأين . بل شغلت عما كان الجرح يبعثه فيها من ألم ، وأخذت ترقب الطبيب المداوى وكأنما لا ترى ولا تحس فى الدنيا سواه . فلما فرغ من عمله وحياها منصرفا أتبعته عينيها حتى غاب ، فاستغرقت فى حلم عذب هنىء ، خايلتها فيه رؤى سماوية وأشرفت فيه — من خلال عينى الطبيب — على الجنة التى وعد بها السعداء . ثم آبت من حلمها بعد حين الى يقظة واعية ، شعرت فيها أن حياة جديدة لها قد بدأت فى غرفة المستشفى بالجامعة ، وان يد القدر كانت وراء اليد التى ضمدت جرح ساقها .

أترى تضمد هذه اليد جرحا آخر أحسته فى قلبها ؟ أم لعل حادث اليوم لم يكن سوى ثغرة نفذ منها سهم القضاء الى صميم كيانها ، عن طريق ذلك الجرح السطحى العابر ؟

لم تكن تدرى ..

* * *

« ورأته بعد ذاك ، وعرفت من هو ...

كان طبيبا أرمنيا شابا ، نزح الى « بيروت » يستكمل ثقافته الطبية ، ويقضى فترة التمرين فى مستشفياتها . وقد زهاه أول الأمر أن تتعلق به فتاة مثلها ، ذات جاذبية خاصة : بذكائها ، ونضرة شبابها ، وطموحها ، وكبريائها ، وقوة شخصيتها . وسمع من القوم حوله أنها تأبت على الخطاب وردتهم جميعا فى شموس وعناد ، طامحة الى بعيد مجهول . فلما أحبته بكل كبريائها وكل عنادها ، وأذلت بين يديه دمعتها الأولى ، أحست « رجولته » كل الزهو والغبطة ، ولذ له أن يراها الناس معه ، ترنو اليه فى هوى وافتتان .

ومضى عامان اثنان والخطيبان فى نشوة ذاهلة ، قد أبعدهما الهوى عن الدنيا ونأى بهما عن الواقع ، وحملهما على أجنحته السحرية الى قمة عالية فى أفق الأحلام .

* * *

ثم كان فراق ..

عاد الخطيب الى وطنه حين وجب عليه أن يعود ، فذكر ما كان زهو الرجولة قد أنساه اياه ! عاد الى قومه وعشيرته ، وأرضه ودنياه ، والى فتاة له من ذوات قرباه ، تعلق بها صبيا وربطتها اليه أواصر لا تنفصم ، من الألفة والجوار ، ومن وحدة الجنس والدم واللغة والمزاج ..

وبقيت الأخرى ، على ذرى الجبل فى وادى الأحلام وحيدة تنتظـر ..

وطال عليها الأمد وهى تحدق فى الأفق الشمالى ليل نهـار تلتمس عودة الحبيب الغائب ، حتى أعياها التحديق وأضـناها السهد ، فتعبت عيناها ، وكلّ بصرها ، وانطوت على نفسها فى ذلك المجهل البعيد ، ينوشها البرد والحـرمان وتفزعها أسراب البوم والغربان .

ولما التمست الطريق الى دنيـاها الأولى ، زلت قدمها على المنحدر ، وألفت نفسها فى مستشفى الدير ، والراهبات من حولها يحاولن أن يضمدن جرحها ، ويبرئنها من مرض الحياة !

« وهكذا بدأت قصتها بجرح وانتهت بجرح .. وكان المسرح هنا وهناك غرفة المستشفى ! » .

* * *

وذاب صوتها المتعب فى ابتسامة هزيلة لاحت على وجهها ، فخفضت بصرى ، وأنا أحس يدها الجامدة النحيلة تعصر قلبى .

* * *

ثم غابت عنى حينا فى طوايا الأيام ..

تحاشيت جهدى أن أراها وان بقيت — على البعد — أفتقدها وأسأل عنها وألتمس أخبارها . وكانت الحرب الثانية قد أتلفت الأعصاب ، فلم تعد المآسى الفـردية تظهر على المسرح أمامنا ، وشغلت كما شغل الناس جميعا بترقب أنباء المعركة المحتدمة فى الميـدان .

ثم سمعت من أخبار الراهبة ما آلمنى : تسربت بعض ألسنة اللهب من الأتون المشتعل فى الغرب وامتدت الى المستشفى الألمانى بالقاهرة ، فشردت من فيه ممن عملوا فى ظل ادارته القديمة .

وألفت الراهبة نفسها تخرج — شبه مطرودة — من ذلك الجو الذى ألفته وظنت أنها سوف تقضى فيه ما بقى من عمرها . ولم تكن تدرى ماذا يراد بها ، فأمضت فترة قلقة لا يطمئن بها على الأرض مكان .

وكأنما كانت هذه الفترة القلقة المشردة ، وقفة فاصلة ، وقفها الزمن حين بدا له أن يمضى بالراهبة الى مصيرها المحتوم .

ولم تطل هذه الوقفة : كانت بضعة أيام معدودات ، لكن « الراهبة » لم تطق احتمالها .

انهارت أعصابها فجأة ، وبانت عليها أعراض كانت تلوح فيما مضى لمحات خفيفة عارضة ، فلما أمرت أن تذهب للعمل فى معتقل للأسرى ، أبت أن تبرح مكانها وأعلنت التمرد والعصيان .

وأحاط بها الراهبات مشفقات من مثل مصيرها ، يحاولن أن يعدنها الى حظيرتهن ويحملنها على العمل لعلها تجد فيه النجاة ، لكنها كانت قد فرغت — أمام الطلائع المنذرة باناخة الشيخوخة — من التمريض ومن الرهبنة ، كما فرغت — أمام طلائع الشباب البعيد المضيع — من الدنيا والناس ..

وفى نوبة من المرض والضجر والشك ، قامت الى المرآة

تلتمس فى ذاتها صورة « الفتاة » التى عرفتها من زمن ، وترى ما فعلت الأيام بسحرها ونضارتها وكبريائها ، فطالعتها صورة غريبة منكرة ، لا تحمل ظلا — ولو باهتا ضئيلا — لتلك الصورة التى كانتها يوما ..

هنالك حطمت المرآة ، وأنكرت ذاتها ، واعتكفت فى مخدعها تهذى بما لقيت من لؤم الدنيا وكذب العزاء ، وأبت أن تلقى أحدا من أهلها أو معارفها ، وكان جوابها الواحد الأليم ، لكل من أرادوا زيارتها :

— كلا كلا ! تلك الفتاة التى عرفوها وجاءوا يزورونها قد ضاعت .. سرقها الزمن ، وترك مكانها مخلوقة أخرى غريبة كئيبة ، ولا يجوز أن يراها أحد !

* * *

ثم اقتربت الساعة :

لاح فى عينيها الخابيتين وميض مخيف ، فيه من جنون اليأس ونقمة الخيبة وقهر الحرمان ، ما ألقى الذعر فى قلوب أخواتها الراهبات ، فتشاورن فى الأمر وقر قرارهن على أن تحملها احداهن الى « أمها » فى قريتها النائية ، بلبنان .

* * *

ورجعت الأخت مرتجفة الأوصال مهتزة الأعصاب لتقص على أخواتها ما شهدت حين بلغت بالمريضة — بعد رحلة طويلة منهكة — بيتها الأول فى الجبل .

فتحت الأم الباب ، فلم تكد ترى شبح ابنتها حتى صاحت في لهفة وفرح ، وترنحت من فرط التأثر والانفعال وهي تمد ذراعيها لتضم فلذة كبدها . ثم أخذت تناديها في صوت يحرك الجماد ويذيب الصخر ، وتهتف بها أن تأوى الى صدرها لتطفىء نارا أشعلتها أشواق الأمومة ، وتهدىء قلبا براه الوجد وأضناه البعاد . لكن الراهبة ظلت واقفة في جمود قاتل ، تنقل بصرها بين الأم والأخت في برود صامت مثير .

ما الذى طاف بخاطرها في تلك اللحظة ؟

أكانت تأسى على مافاتها وتشتهى مثل ما تجد أمها من ذكريات هنيئة تؤنس وحدة العقد التاسع من عمرها ، وتمنحها الدفء في شتاء الحياة ؟

أكانت تقارن بين عنوستها الجافة المحرومة الكئيبة ، وبين هذه الأمومة التى تمضى أيامها الباقية في سلام ، مغتبطة بذكرى ما نالت في ماضيها الحى ؟

أكانت تتمنى لو أتيح لها مثل الذى أتيح لأمها من هذه الشيخوخة الراضية الهادئة ؟

من يعرف ؟

وأخيرا التفتت الراهبة الى « الأخت » التى صحبتها من مصر ، وقالت في صوت آمر :

— عودى الآن من حيث جئت ، ودعينا وشأننا .

فخرجت تعدو ، وكأنما تفر من مطارد .

على أنها لم تكد تصل الى « بيروت » فى الصبح التالى حتى صك سمعها النبأ المروع ، لقد أحرقت الراهبة جسدها ، تخلصا من محنة الحياة .

* * *

سعيت الى الزميلة العزيزة ، بنت أخى الراحلة ، فألفيتها محزونة جازعة ، فقلت أواسيها :

— ألا يعزيك أنها استراحت ؟

فأجابت وهى تغص بدموعها :

— لهفى عليها ، خسرت الدنيا والآخرة !

لهفى عليها ، أما وجدت — بعد ثلاثين عاما فى الدير والمستشفى — وسيلة للخلاص أخف من النار تعذيبا وايلاما ؟!

وصمتت وصمت .. ثم مضيت أحدق فى التراب ، وقد خيل الى أنى أسمع — من بعيد — صوت الراهبة يوم كانت تقول فى وهن واعياء .

« .. أوليتنا كالهنود ، يحرقون البدن ساعة تنطفىء الحياة فيه ، فاذا هو تراب مبدد ، ما رهقته غبرة ، ولا فاحت منه رائحة ، ولا عاث فيه دود ، ولا احتواه ظلام ! » .

ما أحوج البشرية الى عون من رحمة الله ، وما أحق الأنوثة الى الكثير من هذه الرحمة ، سواء فى ذلك الأم .. والراهبة !

المشردة



« قالت متلطفة :

لا بأس عليك اذا لم تكونى عرفتنى ، فليس ذنبك أن مسختنى الأيام !

أجبت فى وجوم وأسى :

ـ لكنى لن أغفرها لنفسى قط ! »

لن أغفر لنفسى أبدا انى مررت بها بعد فراق طويل فلم أعرفها، وعبثا أحاول أن أعتذر بذلك الفراق الذى امتد سبعة عشر عاما ، فقد كان قلبى جديرا بأن يدلنى عليها مهما يتطاول البعـد بينى وبينها أو يغير منها الزمان !

لكأنما نسيت نفسى ، فما كانت صاحبتى هذه الا قطعة منى فى مرحلة من العمر أتشبث بها وآبى على الزمن أن يهوى بها فى مهابط النسيان ، لكى تظل أبدا تؤنسنى فيما أستقبل من أيام مثقلة بشواغل الدنيا وهموم الحياة .

وليست « ثريا » من ذوات قرباى ، ولا كانت وحدها رفيقة صباى ، لكنما ربطتنى اليها صلة عجيبة طالما تندر بها من حولنا منذ سمعوا بها .

وقد ظللنا نجهل هذه الصلة ونحن نغدو معا الى المدرسة ونروح فتجمعنا قاعات الدرس وملاعب الحداثة . ثم حدث ذات يوم أن انصرفنا من المدرسة قبل الموعـد المعتاد ، وألحت علىّ « ثريا » أن أصحبها الى بيتها لكى ترينى عرائسها ولعبها ، فلبيت الدعوة وأمضيت ساعة فى ضيافتها . ثم عدت الى البيت ، وحدثت أمى عما لقيت من حفاوة أهل «ثريا» . فتبسمت رحمها الله وقالت :

— أرأيت أمها ؟ يقولون انها مليحة شقراء .

أجبت أمى وأنا أملأ عينى منها :

— نعم رأيتها ، وانها لكما سمعت ، لكنك أجمل منها وأحلى!

فهزت رأسها ضاحكة وهى تقول :

— عجبا ! لقد أوشكت هذه السيدة أن تكون والدة لك !

ولما سألتها عما تعنى ، كشفت لى عن علاقة غريبة بيننا وبين أم « ثريا » : فلقد خطبها والدى وهى فتاة ، وكاد يتزوجها لولا ظروف طارئة حالت دون اتمام ذاك الزواج .

ومضى كل منهما فى طريق ، تزوجت هى من أحد تجار المدينة ، وتزوج أبى ممن صارت أمى !

* * *

وأذكر أننى أمضيت شطرا من ليلتى تلك مسهدة ، أستعيد صورة السيدة الشقراء ، وأحاول عبثا أن أعرف أين يكون موضعى لو تم زواجها بأبى : أكنت أولد لأبى منها ؟ أم تلدنى أمى لو تزوجت من رجل آخر !

واقشعر بدنى وأنا أتمثلنى ابنة لغير أبوى العزيزين ، حتى اذا أصبح الصبح والتقيت بثريا فى المدرسة ، أجفلت منها وأنا أنقم عليها بنوتها لامرأة كادت تحرمنى من أمى ، وشعرت « ثريا » بجفوتى فألحت فى سؤالى عن سببها ، فلم أكتمها ما علمت من نبأ الأمس ، ثم اذا بنا فجأة نضحك من هذه الخواطر الغريبة التى أرهقتنى ليلة كاملة ، وأقبلت كل منا على صاحبتها وهى ترى فيها أختا لها ، وان لم تجمعنا رحم أو يصلنا نسب .

ومن ذلك اليوم ، ألفتها حتى ما عدت أفترق عنها الا حين تنصرف كل منا الى بيتها ، وطالما جلسنا معا نفكر فى لغز « الأبوة

والأمومة » وتتفكه بتبادل موضعينا فى الأسرتين ، وقد يطيب لنا أحيانا أن نخلط بيتينا معا ثم تختار كل منا من تشاء من هنا ومن هناك ! وعبثا حاولت « ثريا » أن تدعنى مرة أقبل التنازل عن أمى فقد كنت أقبل أى وضع الا أن أكون بنتا لتلك الأخرى التى شعرت نحوها بنفور لم أدر سببه ، رغم حبى لثريا ورغبتى الصادقة فى أن نكون أختين !

ومن عجب أنها لم تنقم علىّ قط نفورى الصريح من أمها ، ولما سألتنى عن سر ذاك النفور لم أجد ما آخذه على والدتها سوى شىء من صرامة الطبع وقسوة الملامح وجمود العاطفة ، فاندفعت « ثريا » تبرر هذا كله بما لقيت أمها فى طفولتها من متاعب ، فقد عاشت مع زوجة أب شرسة الطباع صخرية القلب ، ثم نزحت من وطنها « يافا » بعد موت أبيها ، لتعيش غريبة مع عم لها يقيم فى مصر ويشتغل بالتجارة بين مصر والشام الى أن تزوجت ..

* * *

ثم افترقنا ..

نزح آل « ثريا » من بلدتنا بعد كارثة ألمت بهم ، فلقد غرقت سفن لأبيها مثقلة ببضائع غالية اشتراها له صـــهره من الشام ، وحاول المسكين أن يتماسك لكنه آثر آخر الأمر أن يهاجر الى « بور سعيد » ليبدأ حياة جديدة ، شقية مناضلة ، بعيدا عن معارفه ورفاقه .

وبقيت على البعد أتتبع أخبار صاحبتى فى لهفة وحرص ، حتى انتقلنا الى القاهرة ، حيث لا أحد هنا يعرف آل « ثريا » أو ينقل الى عنهم خبرا . وتراخى الزمن ، وبعد ما بينى وبين صاحبتى ، فاكتفينا بالذكرى نلوذ بها ليبقى لنا ماضينا الذى ولى وراح !

* * *

ولقيتها بعد ذلك فما عرفتها !

لقيتها وجها لوجه ، حين ذهبت أعود قريبا لى مريضا فى أحد المستشفيات ، فاستوقفتنى هنالك ممرضة مجهولة ، وراحت تحيينى فى لهفة وأنا أحاول عبثا أن أتذكر من تكون .

وسألتنى فى عتاب :

— ألا تذكريننى ؟

أجبت معتذرة :

— عفوا ، كأنى أعرفك ، فلو ذكرت لى اسمك ؟

فردت بصوت وديع :

— أما أنا فعرفتك على الفور ! أالى هذا الحد غيرتنى الأيام بحيث لا تعرفنى أختى ؟ أنا ثريا .

فدارت بى الدنيا ، وأخجلنى ، بل أحزننى ، أن أنسى تلك التى كانت قطعة منى .

وشعرت هى بما يرهقنى ، فقالت متلطفة :

— لا بأس عليك ياأخت ، فانى أعذرك !

قلت فى وجوم وأسى :

— لكنى لن أغفرها لنفسى أبدا .

فسألتنى :

— وما ذنبك وقد مسخنى الزمن ؟ هلا أتحت لى أن أستعيد أيامنا الخوالى وأعيش معك لحظة فى ذاك الماضى السعيد ؟ انى تنازلت عن أمى ، أفما زلت تصرين على التشبث بأمك ؟

قلت والحزن يفرى كبدى :

— بل تبقى لك آمك ياثريا ، فما عاد لك عندى عوض عنها : لقد ماتت أمى منذ اثنى عشر عاما ، وخلفت لى اليتم المر والحزن المقيـم .

فما راعنى الا أن سمعتها تقول :

— هونى عليك ياأخت ، فالموت حق ، ونحن جميعا اليه نصير ، وما هو والله بشىء اذا قيس بفجيعتى فى أمى وهى بعد محسوبة بين الأحياء !

واذ ذاك أمسكت عبرتى ، على حين استطردت هى قائلة :

« كان آخر عهدك بنا يوم شردتنا الكارثة ولم تبق لنا فى البلدة الحبيبة موضعا . وهنـالك فى غربتنا بدأ أبى يكافح من جديد لنعيش ، وقد رضى من أجلنا أن يذل نفسه ويشتغل بأحقر الأعمال ، لكن أمى لم تطق على الفقر صبرا ، فما كادت تلوح لها فرصة السفر مع عمها الى « يافا » حتى حملتنى وسافرت بى الى

هناك وهى تزعم أنها بذلك تخفف العبء عن أبى ، وتؤكد لى أننا لن نلبث أن نعود .

« فلما استقر بها المقام فى وطنها الأول ، قطعت كل صلة بينها وبين العامل الفقير الذى تركته يكدح فى قاع الهاوية ، وظفرت بالطلاق ففرضت علىّ اليتم ، وأقامت بينى وبين والدى سورا منيعا من التجاهل والقطيعة والنكران .

« ثم زينت لها نفسها الأمارة بالسوء أن تتخذ منى وسيلة للظفر بما ظلت تحلم به من ثراء ، فزوجتنى من غنى مريض الشخصية ، حتى اذا استنفدت آخر قرش لديه طلقتنى منه لتستبدل به كهلا ذا مال ، ولما أبيت أن أستجيب لها ، تزوجت هى من الرجل ، ولفظتنى من دنياها ، كيلا أطفىء أضواء « عرسها » وأذكر الناس حولها بأنها أم !

« ولبثت أعواما أصارع أمواج الحياة وحدى ، الى أن ألقى بى القدر فى مستشفى للراهبات تعلمت فيه التمريض ، وتطوعت للخدمة فى الميدان ابان محنة فلسطين ، ومن ثم عدت الى الوطن ، لأجد أبى بقية من حطام ذاهل ! » .

سألت راثية :

— فماذا فعل الله بك وبه ؟

أجابت وعيناها الى السماء :

— أدركتنا رحمة منه ، فما كاد أبى يرانى حتى استرد وعيه الذاهب واستعاد كيانه الضائع . وكذلك بدأت أفيق رويدا من

دوامة الاعصار الهائل الذى لفنى زمنا ، وأحس شيئا من الطمأنينة والاستقرار ، بعد طول تشرد واغتراب . وهكذا نعيش يا أخت ، ترعانا عين خالق لا ينام » .

* * *

وآن لى أن أنصرف ، فودعت صاحبتى وأنا أحاول أن أتأسى بها فلا أجزع من أجلها ، ولا آسى على ما فاتها من الدنيا ، بل أكلها الى رحمة الله الذى وهبها نعمة الصبر وهيأ لها من سكينة الايمان ما عصمها من التصدع والانهيار .

الضائعة ..



((ونظرت اليها ، فلم أر غير بقية تعسة من امرأة ضائعة)) .

كانت تجلس الى جانبى فى قطار الصعيد بادية التعب ، وقد انكمشت فى مكانها مطرقة صامتة ، لا تكاد تلتفت الى شىء مما حولها ، وأحسبنى ضقت بذلك الجو الذى يتنفس ضجرا وملالا ، لكنى لم أشأ أن أبدأ رفيقة السفر بحديث ما ، بل تركتها لصمتها وانصرفت الى النافذة ، أحدق فى الظلام المنتشر .

وأسرى بنا القطار لاهثا يضرب فى أحشاء الليل ، ويتلوى فى متاهات الظلمة ، وقد توارت القرى خلف الصخور الكالحة الغبراء ، وخبت المشاعل القليلة التى كانت ترسل أضواءها النحيلة فى عتمة المساء ، ونامت الدنيا غير نفر من حراس الليل وعدد من الرعاة الرحل الشاردين قد تلفعوا بأرديتهم السود وبدوا كأنهم قطع من هذا الدجى ، أو بعض أشباحه السارية .

وفجأة عوى القطار وكف عن السير فى حركة عنيفة هزت كل شىء فيه ، فانتفضنا فى أماكننا ونظرت كل منا الى الأخرى ، فطالعنى منها وجه شاحب غضنته الهموم ، وخط عليه الزمان سطورا من الكلال !

وعاد القطار فاستأنف سيره بعد أن تعطل بعض ساعة لاصلاح خلل طارىء ، وقد اندفع يجرى مسرعا رجاء تعويض الوقت الذى فات ، فكنا نسمع له ضجيجا لاغبا يمزق السكون الذى خيم على الكون الهاجع .

وأحسست كأنما أصابتنى عدوى من كآبة رفيقتى ، فلذت

بالصمت مثلها وانطويت أجتر بعض الخواطر الحزينة ، ثم رأيتها تنهض بغتة الى النافذة ، ففتحتها التماسا لجرعة من الهواء البارد ، ولكنها ما لبثت أن أغلقتها على عجل ، بعد أن صفعتها ألسنة من الدخان محملة بذرات الفحم وشرار من النيران .

ولما هممت بأن أعينها على اصلاح شأنها ، شكرتنى قائلة فى خور :

— لا عليك ياسيدتى ، فما تضيرنى حفنة من تراب ودخان !

وعدنا الى صمتنا المرهق ، وقد هزنى ما فى صوتها من شجن ..

* * *

وبلغنا أسيوط والليل قد أوغل فى نصفه الثانى ، فسرت على عجل متجهة الى « استراحة المفتشات » اذ كنت منتدبة للتفتيش على تدريس اللغة العربية بمدارس البنات .

ولشد ما عجبت حين رأيت رفيقة القطار قد سبقتنى الى الاستراحة ، فلم نتمالك أن هتفنا معا للمصادفة التى جمعتنا ثانية على غير انتظار .

وزايلنا ما كنا نشعر به من تحفظ ، فجلسنا نتسامر وقد نفى الكرى عن أعيننا هذا اللقاء الغريب بعد صحبة ساعات فى القطار ، لم نكد نتبادل خلالها سوى تحية مبتورة .

وكانت هى التى بدأتنى بالحديث ، سألتنى :

أجئت منقولة الى هنا ؟

قلت : كلا — بل زائرة عابرة فى مهمة لا تستغرق أكثر من ثلاثة أيام .

وأنت ؟ هل وفدت للتفتيش ؟ أجابت :

— كلا ، بل أنا معاقبة بالنفى الى قلب الصعيد ، وقد قطعت اليه الطريق من برارى الشمال .

وصمتت لحظة ثم استأنفت :

— لشد ماذكرتنى هذه الرحلة بما قرأت عن رحلات الروس المنفيين الى سيبيريا !

قلت أهون عليها :

— خففى عنك ياأخت ، فأين النفى من النقل ؟ وأين صحارى الجليد فى سبيريا من عروس الصعيد فى جنة الدنيا ؟ قد تطيب لك الحياة هنا فى دفء الجنوب ، بين قوم كرام من مواطنيك ، لعلهم أعرق فى مصريتهم من أهل الشمال المزدحم بخليط من شتى الأشكال والألوان ، وأوشاب من مختلف الملل والأجناس يستمرئون العيش فى أرضنا الطيبة ، ويستأثرون بخيراتها دون بنيها الجياع !

فنظرت صاحبتى الىّ نظرة أخجلتنى ، فأمسكت عن القاء (محاضرتى) فى مزايا النقل الى الصعيد ، ومضت هى تقول :

— ذاك ياأخت لو انى نقلت الى الصعيد فى ظروف طبيعية ، أو كان هذا النقل اجراء عاديا مما تقتضيه المصلحة العامة ، اذن لقلت معك ان أسيوط ، والدر ، وأسوان ، قطع من وطنى العزيز ، وما هى من بلاد التبت أو أرض النيام نيام ، ! أما وهذا النقل ليس الا حكما جائرا أملاه الهوى ودفع اليه الحقد والانتقام ، فهل

تستكثرين عليّ أن أصفه بالنفى ، ولى فى أقصى الشمال أمّ عجوز مقعدة شلاء ؟

قلت فى خجل واشفاق : كلا ..

ثم أطرقت صامتة ، على حين مضت هى تروى المأساة ..

* * *

كانت نشأتها الأولى وسطا فى كل شىء ، فأسرتها محافظة لكنها تقبل بعض الجديد فى تحفظ وعلى مهل . وقومها ميسورو الحال ، لكن الى حد محدود ، ومنبتها فى بلدة لاهى الى الريف الخالص ولا الى الحضر وانما هى بين بين ، على أطراف البرارى غير بعيد من الاسكندرية .

وكذلك خرجت الفتاة الى الدنيا تحمل هذا الطابع الخاص الذى قلما نخطئه فى بنات الطبقة المتوسطة من سكان المدن الصغيرة أو القرى الكبيرة ، وتعلمت قدر ما أطاقت ظروفها وبيئتها، تعليما متوسطا لم يصل بها الى العاصمة حيث الجامعة والمعاهد العليا ، ولم يقف بها عند بلدتها حيث (الكتاتيب) والمدارس الأولية ، وانما خطا بها خطوات نقلتها الى حاضرة اقليم البحيرة ، ثم عادت بها الى قومها شابة متعلمة مصقولة !

وكان فرضا عليها أن تجند فى جيش المعلمات بضعة أعوام ، ضريبة محترمة تؤديها لوزارة المعارف لقاء تعليمها ، وليس من حقها أن تتزوج ، ما دامت مشتغلة بالتدريس .

وقد أقبلت على عملها الجديد راضية مزهوة ، لكنها لم تكد

تمضى فيه عامين اثنين حتى بدأ الملل يتسرب الى نفسها خفية دون أن تدرى ، وأقبل العام الثالث فاذا بها ضجرة مشفقة ، تخشى ان ظل بها المدى على تلك الحال ، ألا تجـد ما تقدمه لحياتها الطبيعية المشتهاة ، سوى حطام شباب ذابل !

واعتصمت بالجلد ، وراحت تنفق من أعصابها فى اسراف ، حتى اذا ما أوشكت أن تتم فترة التجنيد ، تلفتت حولها ، تفتقد فى عالمها أولئك الخطاب الذين طالما حاموا حولها ، فاذا بهم جميعا قد غضوا الطرف عنها تهيبا ، فلم يعد أحد منهم (يجرؤ) على الطمع فى الزواج من (حضرة المعلمة) .

أما (حضرتها) فكانت تتمنى من صميم قلبها ، لو رد الله اليها أحد أولئك الخطاب الذين تأبت عليهم زمانا ، كيما ينقذها من تلك المعيشة الرتيبة الكادحة ، قبل أن ينطفىء الشعاع البـاقى من سراج الشباب !

* * *

وحدث فى تلك الفترة أن مات أبوها وترك لها أما كهلة عليلة ، فلم تجد الفتاة بدا من أن تبيع ما ترك أبوها من ميراث ضئيل ، ثم اشترت بتلك الصبابة من المال ، وبما ادخرت من مرتبها المحدود ، دارا صغيرة قريبة من مركز عملها ، وشطرت نفسها من بعد ذلك شطرين : أحدهما لرعاية أمها العليلة ، والثانى لأداء واجبـات مهنتها المرهقة !

وأسبغ الله عليها روحا من السكينة ، فاستطابت أن تعيش لأمها مجاهدة صابرة .

لكن الناس لم يستطيبوا أن يروها طيبة النفس بما تبذل ، وكان الذنب ذنبها ، فلو أنها استثقلت العبء وأظهرت عجزها عن احتماله ، ودارت فى الدنيا شاكية نائحة ، لوجدت فى (المناحة) ألف نادب ونادبة ، وألف راث وراثية ..

أما وقد أظهرت الصبر على أحداث الزمان ، ووجدت فى البذل والايثار نوعاً من اللذة ينسيها متاعبها ، فان الناس رأوا فيها موضوعا خصبا يملأون به مجالسهم ، وفريسة شهية ترضى نهمهم الى نهش لحوم البشر !

* * *

وتعاقبت عليها نسوة الحى من جارات عجائز وزميلات عوانس، يسألنها عما يحول بينها وبين الزواج ، فلما أشارت الى أمها انصرفن عنها ينثرن حولها باطل الأقاويل وينسجن من أخيلتهن المريضة ما يشفى عقدهن النفسية .

فهذا الطبيب الكريم الذى يتردد على البيت لعلاج الأم المريضة ، انما يتخذ من مهنته ستارا يقضى وراءه حاجة فى نفسه !

وذاك المحامى الذى يدافع عنها عصبة من أشرار استغلوا ضعفها وأنكروا أنها دفعت ثمن البيت نقدا ، انما يقبض أتعابا ودية غاية فى السخاء !

وذلك المفتش الكهل الذى يأبى الاصغاء الى شائعات السوء عنها ، ويتغاضى عما يحمله اليه البريد من خطابات ضدها ، غفل من التوقيع ، انما يحمى المعلمة لأنها تصغى الى تودده .

وهذا .. وذاك .. وذلك !

هنالك أدركت الفتـــاة أنها فى حاجة ملحة الى « رجـــل » يحميها ، وقد وجدت هذا الرجل على قيد ذراع منها ، ينتظر اشارة واحدة ليلبى النداء !

كان قاضيا شيخا من حملة القرآن وحراس الشريعة ، يتجمل بالزهد والتقوى ويرتدى زى العلماء ويجلس للحكم بين الناس بكتاب الله تعالى وسنة نبيه المختار .

وقد عرف الفتاة بحكم مركزه عقب وفاة أبيها ، فأبدى عطفا عليها واهتماما بأمرها ، واستعدادا لمعونتها ، غير أنها لم تشأ أن تثقل عليه أول الأمر ، وآثرت أن تحمل همها على كتفيها ، حتى اذا أرهقها الحمل ذكرت ماقال فضيلة الشيخ عن بابه المفتوح لأمثالها من اليتيمات والضعيفات ، فجاءته تمشى على استحياء تستشيره فيما تلقى من كيد وأذى .

وأصغى الشيخ اليها بكل جوارحه ، ثم أقبل عليها يرجوها ألا تخاف أو تحزن ، فهو الى جانبها يشد أزرها ويحمى ضعفها .

وكانت « فتواه » الأولى أن تتخلص مؤقتا من ملكية البيت ، ببيع صورى لشخص تثق فى أمانته ، حتى اذا خسرت القضية لم يجد خصومها ما يأخذون !

فهتفت به أن يكون هو ذلك الشخص الأمين ، لكنه أبى وتعفف ، ثم قبل بعد الحاح ورجاء والتماس !

وكانت « فتواه » الثانية أن تعينه على ما يرجو من حمايتها ،

فان رجلا متدينا مثله ، لا يستحل أن يلقاها على انفــراد وهى لا تجوز له شرعا ، فان شاءت فليتزوجها أمام الله ، زواجا شرعيا فحسب ، لا تحرر به وثيقة ، ولا يترتب عليه أى أثر ، ولكنه يحل له أن يلقاها ، وأن يخلو بها مطمئنا غير متحرج ولا آثم .

وقد تهيبت الفتاة أول الأمر ، ولكن أمها حثتها على أن تسلم قيادها الى مثل هذا الرجل المتدين ، الذى يخشى الله ويعرف الحرام من الحلال .

ومضى عام وهما يتلاقيان ..

مضى عام خرست فيه عنها ألسنة الناس ، وألقت العجــائز والعوانس مغازلهن ، فما عدن ينسجن حولها الشائعات .

لقد ألقى فضيلة الشيخ عليها ظلا من حمايته ، فرد اليها اعتبارها فى نظر الناس ..

لكنها فقدت اعتبارها أمام نفسها ، ذلك لأن الشيخ استغل عجز أنوثتها وضعف حاجتها ، فأصر على أن يظفر بحقه الشرعى فيها ، وما زال بها يغريها حينا ، ويرهبها أحيانا ، حتى نال منها كل الذى أراد !

وكان ما لابد أن يكون ..

بدت عليها أعراض الحمل ، فجزعت أمها ولم تصدق عينها ، فما كان يدور بخلدها قط ، أن الأمر صائر الى شىء من هذا ، أو قريب منه !

وأكبت المسكينة على قدمى الشيخ تتوسل اليه أن يعلن زواجه من بنتها ، وليطلقها بعد ذلك اذا أراد ..

لكنها كانت تخاطب حجرا أصم ..

أما الفتاة فما توسلت ، ولا التمست ، فقد كشف الغطاء عن عينيها منذ أشهر ، وعرفت أى رجل هو ..

وتخلصت من الجنين التعس ، ثم أرادت أن تستأنف عيشتها الكادحة بعد أن خسرت نفسها وأضاعت حياتها ..

لكن الشيطان لم يدعها تعيش ، فما زالت فيها بقية يريدها خالصة لمتعته المشروعة ، ولما أبت عليه ذاك فى تمرد واشمئزاز ، طردها وأمها من البيت الذى اشتراه منهما صوريا ، كى ينقذه لها !

وبشرها بعذاب أليم .. وكان صادق الوعيد !

وهذه هى تنفى الى قلب الصعيد ، تاركة وراءها أما عليلة ، مات زوجها وضاعت وحيدتها ، وابتلع الثعبان كل مالهما المدخر .

***

سألتها وأنا فى دهشة الأسى والعجب :

ـ هل ضاقت بك الحيل فلم تجدى وسيلة لدفع أذى الشيطان ؟

أجابت وهى تدثر بغطائها لتدفىء جسدها النحيل المقرور :

ـ لو أذعت سرى الرهيب ، لحملت فورا اما الى مستشفى المجانين ، واما الى ظلمات السجون ! فما فى الناس من يرضى بأى اتهام لرجل كهذا ، ملء الأبصار مهابة ووقارا ، ملء الأسماع عفة وتقى ! وما فيهم من يصدق أن مثل هذا الشيخ الزاهد الورع ، الحريص على حقوق اليتامى والأرامل ، يقترف ما أتهمه به من

كبائر الآثام ، وانما أنا مجنونة أهذى ، أو خاطئة شريرة ، تتصيد من تلصق به عارها !

قلت :

— فهل يمتد نفوذ « فضيلته » الى هنا !

فأجابت :

— والى أبعد من هنا ، وهناك ، وهنالك ، وأرانى نسيت أن أقول لك ان صديقا له من الحكام هيأ له ما أراد من نفوذ وسيطرة فى ديوان المعارف ، فاذا الموظفون يأتمرون بأمره ويحرصون على رضـــاه !

وكدت أسألها : من يكون ؟ لكنها أغرقت فى صمتها فتركتها لعلها تغفو !

وأقبل الصبح ونحن فى فراشينا نشكو الهمـــود والاعياء ، لكنا تحاملنا على نفسينا ، وسعت كل منا الى عملها .

ولم أسمع صاحبتى تتكلم عن مأساتها بعد هذا ، حتى غادرت أسيوط بعد أيام ، وخلفتها من ورائى وأنا أسأل لها رحمة الله ..

وحاولت أن أنساها ، لكن شبحها التعس ظل يمشى على أثرى مطاردا .

* * *

ودارت عجلة الزمن عاما واثنين وثلاثة ، ذهبت الى أسوان فى رحلة خاصة ، فاذا القدر يعد لى هناك مفاجأة لم تخطر لى على بال!

لقد كانت صاحبتى هناك : منفية الى أقصى الجنوب ، ما تزال محكوما عليها بالتشرد والتعذيب .

وسألتها حين رأيتها على شط النيل :

— كيف حال الأم ؟ .

أجابت وعلى وجهها ظل ارتياح :

— رحمها الله ، فأعفاها من محنة العيش !

قلت :

— وأنت ؟

قالت وهى تغص بريقها : كما ترين !

ونظرت اليها ، فلم أر غير بقية فاجعة من امرأة ضائعة ..

ولم أملك لها — فى هذه المرة أيضا — الا أن أسأل لها رحمة السماء !

الخائفة ..



« وراحت صورة عمتها العانس تلوح لها فى أحلام اليقظة ورؤى المنام ، فتهز كيانها وتضغط على أنفاسها حتى لتوشك أن تختنق من فرط الذعر والاجهاد » .

تفتح صباها على ظلال كئيبة تغشى الأفق من حولها ، ولم تكن بحاجة الى خبرة الحياة أو نضج السن ، لكى تدرك أن عمتها العانس هى مبعث كل ما فى البيت من كآبة وانقباض ، ولا كانت تعوزها حدة فى البصر لكى ترى أن هذه العمة أشبه ببقعة حزينة معتمة ، فى جو البيت الذى تهيأ له من كرم الأصل وعزة الغنى وطيب السمعة ، ما كان جديرا بأن يتيح له الحظ الأوفى من السعادة والنعمة .

وفى الحق ، لم يكن فى الحى كله بيت يدانيه رفعة وجاها ، لكن وجود فتاة عانس بين جدرانه ، كان كفيلا بأن يحيل طعم الحياة مرا فى مذاق كل من هناك ، وأن يرد الحياة عبئا ثقيلا مرهقا يحمله أهل البيت على كره ، وفى كثير من الضجر والملال .

وكانت قصة العمة مأساة فاجعة :

مات أبواها وهى طفلة ، فكفلها أخوها الشقيق ، وأنزلها من نفسه وفى بيته منزلة الابنة ، ولم يشأ أن يحرمها هذه المنزلة حتى بعد أن تزوج وأنجب طفلته الواحدة ، وما كان بالأخت الشابة من عيب سوى أنها جمعت من الجمال وأصالة المنبت ما جعلها بمنأى عن طلاب الزواج ، فما جرؤ واحد منهم أن يطمح ببصره اليها فى أفقها العالى ، حتى اذا أوشك شبابها أن يذبل ، تقدم لخطبتها شاب يتيم فقير ، تربطه بها قرابة بعيدة ، وقد أعوزه المال الذى يتم به دراسته العالية فرحبت به الأسرة خاطبا لفتاتها الكبرى ، ثم تكفلت بنفقات دراسته فى كرم وتلطف دون أن

تجرح رجولته أو تؤذى كبرياءه ، بل هان لديها المال فى سبيل حل عقدة الفتاة الجميلة الطيبة التى أرهقها الانتظار الطويل .

وسافر الشاب فى بعثة علمية الى الخارج ، وترك العروس حيث كانت فى منزل شـقيقها ، تتهيأ ليومها الموعـود ، وتحلم باللحظة التى يئوب فيها المسافر . بعد أن أجهدها الشك والقلق .

وطاب لها أن تغفو على الرؤى الحبيبة ، فلم تكد تشعر بما يفصلها عن خطيبها من أبعاد وآماد ، ولا شق عليها أن تمتد غيبته أعواما خمسة ، اذ كانت مستغرقة فى نشوة من حلمها العـذب الجميـل .

حتى آن له أن يعود .

وتهيأت الأسرة لاستقباله فى حفاوة بالغة ، وقامت العروس للقائه وفى عينيها خدر الحلم ، فكان لقاء الوداع ..

لقد عاد ليقدم الى أهلها جميل شكره على مالقى من معونة كريمة لم يكن بغيرها يستطيع أن يخطو خطوة واحدة الى الأمام .

عاد ليدفع ماعليه من الدين مضاعفا ، مع تقـديره الخالص واعترافه بالجميل .

أما الزواج .. فاعتذر عن عدم اتمامه ، اذ بدا له بعد طول التدبر والأناة ، أنه لن يستطيع اسعاد هذه العروس الطيبة التى يتمنى لها السعادة من كل قلبه ، ويدعو لها مخلصا بالخـير ، ولا ينسى أنه مدين لها ولأهلها بالكثير ! ذلك لأن حياته فى أوروبا قد عرضت عليه نماذج ليس بينها وبين قريبته أدنى شبه ، نماذج

غيرت نظرته الى المرأة وفكرته عنها ورأيه فيها ، بحيث يشق عليه أن يتزوج من غير متعلمة .

وانصرف شاكرا ، داعيا ، مودعا الى غير لقاء ..

وترك العروس من ورائه تعبث ذاهلة بحطام أحلامها المبعثرة وتخطو فى يأس واستسلام الى منطقة الظلمات ، حيث العوانس المقضى عليهن بالحرمان الطويل ..

* * *

وفرغت الدنيا من أمرها على عجل ، ونفضت يديهـا منها ، والتفتت الى صبية أخرى يافعة فى البيت ، كانت لا تزال تلهو فى ملاعب الصبا خلية البال ، غافلة عما كابدت عمتها من هموم .

ومن تلك الملاعب ، انتزعها قومها وذهبوا بها الى مدرسـة فرنسية راقية حيث ألحقوها بالقسم الداخلى ، وزينوا لها ، بل توسلوا اليها ، أن تجتهد فى التعلم كيلا يكون مصيرها كمصير عمتهـا .

ولما حدقت الصبية فى العمة لكى تعرف ما بها ، تسلل الخوف الى قلبها ، وألقى ظله الحزين على وجهها الناعم الحلو ، ومرت يده القاسية على ربيعها الباسم الناضر ، فاعتراه ما يشبه الذبول والجفـاف .

ولولا أن شعاعا ضئيلا من نور الأمل كان يلوح لها على البعد وسط السحب والظلال ، ويغريها بالجد فى الدرس والتجمـل بالثقافة ، لما استطاعت — مع ذلك الخوف — أن تجتاز مرحلة المراهقة بسلام .

ووجدت فى المدرسة أملها الوحيد وملاذها العاصم ، فاجتهدت حتى أتمت دراستها بتفوق رشحها لتدريس الفرنسية فى أرقى مدرسة للبنات بالعاصمة ، حيث أقبلت على عملها الجديد فرحة بالنجاح ، وفى حسابها أن هذه الشهادة الدراسية التى ظفرت بها ، سوف تعصمها حتما مما تخاف ، وسوف تغرى الخطاب بالتزاحم على بابها والتسابق للوصول اليها ، فأراحها ذلك حينا من الخوف الذى غزا صباها وأفسد عليها ربيعها الباكر .

لكن الشهور مضت والسنين ، وما من خاطب يطرق الباب ..

وعاودها الخوف ، بل صار على مر الأيام رعبا لا يحتمل ولا يطاق ، وراحت صورة العانس تلوح لها فى رؤى اليقظة وأحلام المنام ، فتهز كيانها وتضغط على أنفاسها حتى لتوشك أن تختنق من فرط الرعب والارهاق .

وكانت تصحو أحيانا من نومها المروع ، جاحظة العينين ، لاهثة الأنفاس ، فتحيط بها زميلاتها وهن يحسبن أن الذى بها أثر اجهاد ، وينصحنها بألا تسرف على نفسها فى الدرس والعمل ، فان الدنيا لا تزن « حواء » أبدا بما حصلت من علم وما أدركت من ثقافة .. فحرام عليها أن تخون أنوثتها فتدع العمل يعتصر حيوية شبابها ويسلبها أعز مقومات الحياة .

وكانت « الخائفة » تصغى الى نصائحهن فى حيرة ذاهلة ، وقد تشابه عليها الأمر فما عادت تدرى سبيل النجاة !

أتكون زميلاتها على حق فيما يزعمن من أن الحياة لا تدخل

فى حسابها — حين تزن الأنثى — مستواها الثقافى ، وجدها فى العمل ، ومكانها فى « كادر » الوظائف والموظفين ؟

انهن يتحدثن بلهجة ملؤها الثقة واليقين ، ويبدو عليهن أنهن يصدرن أحكامهن عن خبرة وتجربة ، اذن فلماذا ابتليت عمتها بمحنة الهجر والنبذ ، وما كان ذنبها لدى خاطبها ، سوى فقرها الثقافى ؟

لقد كانت عمتها دائما هناك ، فى تعاستها الكئيبة وصمتها الفاجع ، تكذب كل كلمة من حديث الزميلات ، وتروى لابنة أخيها مأساة عانس ذات جمال ذابل ، أوصد باب الحياة فى وجهها لأنها غير متعلمة .

وتساءلت الحائرة : لمن أصغى ، والى أين يمضى بى القدر ؟ !

ولم يمض بها القدر بعيدا ، بل ألقى فى طريقها شابا مغمورا محدود الثقافة ، لم يتح له أن يدخل المدرسة الثانوية فالتحق بمدرسة « الصنايع » حيث تعلم صناعة الحديد الزخرفى ، ولما أعياه أن يجد رأس المال للعمل الحر ، التحق عاملا باليومية فى مصنع للحكومة . وكان لبقا ، ذكيا ، طموحا ، متأنقا فى زيه وحديثه ، فاستطاع بكل هذا أن يكسب رضا رؤسائه ، ثم ما كاد يذهب الى معرض عام للنشاط المدرسى ، ويلقى « الخائفة » هناك ، حتى أدرك من اللمحة الأولى أنه أمام صيد ثمين .

ولم يحتج الى كبير جهد لكى يلغى بالزواج خوفها ، ويعطل فى الوقت نفسه ارادتها ، فاذا بها تسير فى الطريق الذى رسمه شبه عمياء ، وان بدا لها أنها مبصرة أحد الابصار :

وقد عز عليها أن يدفن هذا الشاب الطموح فى المصنع المغمور، فاندفعت فى حماسة تبنى له بمالها مصنعا خاصا ، وسارت أمامه تعبد له طريق المجد ، وهو يتبعها خاضعا مطيعا ، بادى التعفف والتمنع والزهد !

ولو قدر لها أن تفتح عينيها لحظة ، للمحت شخصه ماثلا أمامها فى كل خطوة : يرسم لها الخطط ، ويحرك يديها ، ويوجه مصيرها ، ويقودها الى حيث أراد .

ولو تدبرت أمرها قليلا والتفتت الى الوراء ، حيث الفصل الأول من مأساة عمتها ، لرأت اليوم أشبه بالأمس ، ولشهدت فى بطلها الطامح ، ملامح من بطل القصة القديمة الذى اتخذ من « بنت الناس » معبرا يعبر عليه نحو المجد .

لكنها كانت فى شغل بحاضرها عن ماض ومستقبل ، فلم يعد يعنيها سوى أن ذلك الرجل حررها من الخوف المرهق ، فتخلصت بالزواج من مطاردة الشبح الكئيب الذى كان يملؤها رعبا !

وطاولها الزمن أعواما تسعة ، استردت فيها أمنها وطمأنينتها وازدهر شبابها الجاف ، فاذا بها مخلوقة ذات عزة وكبرياء ودلال، وكلما بعد العهد بماضيها المرهق بأشباح الرعب ، ازدادت ثقة ودلالا ، وازداد زوجها طاعة وخضوعا ووداعة واعترافا بالجميل .

* * *

ثم بدأ فجأة يتمرد على الأغلال !

لقد صارت الأرض تحت قدميه ثابتة راسخة ، وازدهر مصنعه

فى سنى الحرب ازدهارا غير منتظر ، فامتلأت خزائنه بالمال ، ولمع اسمه فى ميدان الأعمال .

واذ أثقله عبء المجد ، ضاق بأغلال التذلل والخضوع ، وأنكر فى زوجته الكبر والجفاف والجمود ، فلم يتردد فى تمزيق ثوب الحمل الوديع الذى ارتداه طويلا نفـاقا ومداراة ، وظهر أمام زوجته على حقيقته : مخلوقا أنانيا قاسيا ، يريد أن يبدأ حيـاة جديدة على أنقاض تلك التى استنفدت غايتها وعادت غير ذات موضوع !

ولم يلبث أن مضى فى طريقه الجديد دون أن يكترث بشىء ، بل دون أن يشغل خاطره حتى بتطليق زوجته التى بنت مجده .

وغضب لها أهلها فى محنتها ، فأحاطوا بها يواسونها ويدبرون الخطط للانتقام لها من ذلك الوصولى المغامر .

وأجمعوا أمرهم على أن يبدأ انتقامهم بالاحتكام الى القضاء كى ينتزعوا لابنتهم حقها الشرعى ، ولشد ما دهشوا حين وقفت دونهم تتوسل اليهم ألا يفعلوا ، ثم عكفت على عملها صـابرة مستسلمة ، وكأنما قنعت من دنياها بالنجـاة من ذاك المصـير الكريه المرهوب الذى صارت اليه عمة لها من قبل !

~~~~~~~~
~~~~~~~~

اليائسة



« الى كل من تداوت باليأس ، واعتصمت بالجمود الذاهل عما كان وما قد يكون ... »

نظرت حولها تتأمل تلميذات المدرسة التى التحقت بها حديثا ، فلم تجد بينهن من تدانيها عراقة أصل وذكاء عقل ، فخفف ذلك عنها وقع ما كان القوم يتحدثون به عن ضآلة حظها من الحسن ونصيبها من الجمال . كانت هزيلة البدن ، شاحبة اللون ، بادية السقم ، كأنما تشكو من علة خفية طال عليها الأمد . ولم تستطع سنوها الاثنتا عشرة ، أن تضفى عليها من نضرة الصبا الباكر ما يغلب هذا الهزال الشاحب العليل ، غير أن ذلك لم يشغل بالها كثيرا ، بل لعلها ما كانت لتشعر به لولا أنها ألفت أن تسمعه حتى من أقرب الناس اليها وأحناهم عليها ، وان يكن حديثهم عن افتقارها الى الحسن والنضرة ، يلطفه دائما ما يشهدون لها به من ذكاء لماح ، وحس مرهف ، وأصل كريم .

وحالت سذاجة الصبا الغرير دون مرارة الشعور بما يعوزها من جمال ، فلقد زهاها أن تكون المتفوقة دائما على زميلاتها ، الظافرة دونهن بجوائز السبق وأوسمة الشرف . ولم تكن المدرسة الابتدائية لتعترف بغير هذا المقياس ، تقيس به التلميذات جميعا .. ولا دخل فى حسابها قط ، أن تجعل لجمال الجسم أو الوجه مكانا فى التقدير ، ومن ثم أتمت « عزيزة » تلك المرحلة وهى موضع الاعزاز من معلماتها والحسد من زميلاتها ، فلما دخلت « المدرسة السنية » فى سن الثانية عشرة ، هيأت لها الظروف أن تحتفظ بتلك المنزلة المرموقة ، اذ كان شعور الفتيات المراهقات بقيمة الجمال ، تكبته فى ذلك العهد تقاليد صارمة ، فرضتها

« مس ملفين » الناظرة الانجليزية ، وأصرت بها على أن تصرف التلميذات عن الشعور بمحاسن الأنوثة أو العناية باظهار شىء من زينتها . من ذلك مثلا أنها حتمت على الطالبات ألا يخرجن من عنابر النوم الى حجرات الدراسة ، الا بعد أن يسدلن الخمر على جيوبهن ، ويسترن بالزى المدرسى الفضفاض معالم أنوثتهن ، ولم يكن يؤذن لهن بالتجمل البسيط المألوف فى تلك السن ، ولا يباح لهن أن يتحررن من الجو المدرسى الشبيه بأجواء الأديرة.

وفى ظل تلك التقاليد الصارمة ، نمت كبرياء « عزيزة » وقوى اعتدادها بتفوقها وذكائها ، حتى بدا لها أنها من صنف آخر ، أرقى وأرفع من زميلاتها جميعا ، ذوات الحظ البسيط المعتاد من الذكاء !

ورشحها هذا التفوق للتدريس فى معهد عال للبنات ، فأقبلت على عملها والدنيا لا تسعها من فرط اعجابها بنفسها وشعورها بامتيازها ، ثم لم تك الا سنوات معدودات حتى رقيت الى وظيفة ناظرة ، تقديرا لما اشتهرت به من استقامة وجد وذكاء !

* * *

وبدأت المتاعب تواجهها مواجهة صريحة عنيفة ، عندما رأت نفسها فى وسط غريب عليها ، بين جماعة من الموظفات الشابات ، لا هم لهن الا التجمل الصارخ والتأنق الذى يبدى كل محاسنهن . وعبثا حاولت أن تردهن بالحسنى عن ذلك الغى ، أو تزهدهن فيما

سمته خلاعة غير لائقة بالمثقفات ، حتى اذا أعياها الأمر ، بدأت بحكم رئاستها عليهن ، تلزمهن بزى محتشم ، وتحـرم عليهن استعمال المساحيق والأصباغ . وأعانها على ذلك أن وجدت من أولى الأمر فى وزارة المعارف ، آذانا تصغى الى مثل هذه التقاليد الصالحة والرغبات الكريمة ، فأيدوها رسميا فيما ذهبت اليه من وجوب الاحتشام ، حرصا على سمعة الموظفات ، وحماية لمكارم الأخـلاق .

على أن ذلك كله لم يضع حدا لمتاعب الرئيسة الفاضلة .. اذ لم يحل الزى الرسمى الموحد ، دون التفنن فى صنعته الى حد مثير ، ولا استطاعت الأوامر الرسمية أن تعطل ذكاءهن الفطرى القادر على أن يغلب القانون بالحيلة ، وأن يبدع لهن أساليب التزين وفنون التجميل فى حدود « المباح » !

وعندما أخذت الرئيسة تقرب أدناهن الى الحشمة ، وتضطهد العابثات منهن بألوان من الأعمال الاضافية والمؤاخذات القاسية على أصغر الهفوات ، نفد صبرهن فقابلنها بسخرية مرة وتهكم قاس ، أحال حياتها بينهن جحيما لا يطاق !

اذ ذاك أدركت فى صميمها أن المقاييس التى عاشت بها حتى أمس ، لا تعترف بها دنيا الناس حولها .. فتوجست خيفة من مستقبل طويل ، غامض ، مريب ، يحطم كبرياءها ويذل عزتها ، ويردها مخلوقة ضائعة لا مكان لها فى عالم يزن النساء بموازين أخرى غير التى رجحت كفتها فى عهد التلمذة ..

ولم تكن — حتى تلك اللحظة — قد فكرت فى الزواج ، بل أرضاها أن تظل أبدا « رئيسة » تتحكم فيمن دونها ، وتبشر فى دائرة عملها بمبادئها الخلقية السامية ، وتشب — بفضل اجتهادها واستقامتها — من درجة الى درجة ، حتى تغدو ملء الأسماع صيتا بعيدا وسمعة نقية .

وبدا لها الزهد فى الزواج سهلا ميسورا حين قاسته على مكانتها المرموقة طوال حياتها المدرسية ، لكنها لم تلبث أن اكتشفت مدى ما فيه من مشقة وعنت ، عندما واجهت الواقع فى الحياة العملية .

والتفتت حولها مشفقة وجلة ، تفتش عمن عسى أن يكون هناك ممن ترشحهم ظروفهم للزواج منها ، لكن بصرها ارتد اليها كليلا حسيرا ، كأنما غشيته سحابة ربداء !

كان الرجال حولها أحد اثنين : تافه مغمور يرضى بها طمعا فى ايرادها الثابت ، أو قوى لامع لا تخطر له على بال !

* * *

وصار الذى تلاقى من محنتها النفسية ، أقسى وأفجع مما تلاقى من كيد مرءوساتها وسخرية جمالهن « بالذكاء النادر والأصل العريق » . ولم يحتمل كيانها الهزيل وطأة المحنة ، فهاجمتها علل وأمراض ، جعلتها لا تكف عن الشكوى والأنين .

لكن محنتها لم تطل !

فلقد لاح لها على الأفق الكابى ما حسبته نجم الأمل ..

ومن العجيب أن احدى مرءوساتها الجميلات المضطهدات ، هى التى وجهت بصرها نحوه ، ودلتها عليه !

ولم تصدق عينيها عند النظرة الأولى ، فقد كان النجم الذى أمامها ، رجلا يملأ العين جمالا وقوة ، مع ثراء باد وأناقة ظاهرة ، وملامح نبيلة تنبىء عن أصل كأصلها كريم !

ثم أصغت الى نجواه فكذبت سمعها واتهمت يقظتها . كان يحدثها عن افتتانه بقوة شخصيتها ولطف حسها وجمال روحها ونضج عقلها ! وشكا لها ما كابد من تشرد وضلال وتعب ، حين ظل طويلا يفتش عن مثلها فلا يجد الا الألوان البراقة والوجوه المصنوعة والجمال المادى الأبله التافه !

وظل يرتل لها هذا النشيد بأسلوب تمثيلى أخاذ ، حتى أطار عقلها ، فتبعته الى بيت الزوجية منتشية مسحرة !

لكنها لم تكد تخطو خطوتها الأولى فى البيت ، حتى رابها أن فيه شابة ناضجة الحسن ممتلئة الجسم غضة الصبا ، تملأ دار العرس مرحا وطربا !

ولما سألت زوجها عنها ، قال انها مجرد خادمة « مفروضة » عليه لا يملك أن يتخلى عنها ، لأنها تربت فى بيت العائلة منـذ طفولتهـا !

فحاولت العروس أن تزدرد الحجر الذى ألقمها اياه زوجها فى يوم عرسها ، وسكتت على غصة وقهر !

ثم توالت النذر ..

لم يظهر الزوج استعدادا لانفاق قرش واحـد على « بيت الزوجية » فلما لمحت له بما فى ذلك من شذوذ ، سألها فى تلطف خبيث ان كانت تستكثر أن تدفع ايرادها كله ، وأضعافه معه ، لقاء ظفرها بزوج مثله !؟

ولم تجب ..

لكنها أحست بما يشبه الدوار ، من أثر اللطمة ..

وصممت على الاحتمال خوفا وجبنا ، واشفاقا من شماتة العدا وسخرية المرءوسات الخبيثات ، فرضيت بالهوان ، وقبلت أن تنفق على البيت ، وعلى الزوج وخادمته الأثيرة ، دون أن يكون لها من الزوجية الا الاسم والمظهر !

* * *

كم احتملت ..؟!

عاما ، وعامين ، وثلاثة .. وكانت بحيث تمضى فى احتمالها فتمثل — ما عاشت — دور الزوجة الراضـية ، وتخفى وراء القناع الزائف ، تلك المخلوقة الذليلة المنبوذة التى تجرع كأس الهوان قطرة قطرة ، حتى الثمالة ..

لولا أن أعصابها خانتها ، وتمردت على التجربة الرهيبة !

ولم يكن التمرد فجائيا ، فلطالما أصغت المسكينة الى صوت يمزق أعصابها ، كلما عادت من عملها مجهـدة مرهقـة ، لتلقى الخادمة الحسناء فى خدمة السيد الزوج ، ملء الفتوة والنضرة والمرح والحيوية !

وكانت حينذاك تعتصم بكل ارادتها وتنادى حطام كبريائها

المنهارة لتمسك زمام أعصابها وهى تمضى النصف الثانى من نهارها ، ثم ليلها كله .. وحيدة فى غرفتها ، عليلة شاكية منبوذة ، وضحكات الزوج والخادمة تضرب جسدها الواهى بالسياط ، وتملأ جو مخدعها المهجور الكئيب بأصداء خانقة كأنها مزيج من فحيح الأفاعى وقهقهات الأبالسة ! حتى نفد احتمالها فصرخت بالخادمة ألا تبقى تحت سقف بيتها لحظة !

قال الزوج فى هدوء مثير :

— بل تبقى !

فسألته المريضة :

— أو ليس بيتى ؟

قال دون أن يزايله هدوؤه الساخر :

— بل بيتى مادمت مقيما فيه !

فلم تجد المسكينة ما تقوله أو تفعله ، سوى أن تخيره بينها وبين الخادمة ..

فاختار الثانية ، وانطلقوا اياها وعلى وجهيهما ابتسامة عريضة..

ونصح لها مستشاروها أن تغطى هزيمتها بطلب النفقة المفروضة لها عليه كزوجة ، فكان رد الزوج أن طالبها بدخول « بيت الطاعة » .

وطعن محاميها بأن هذا البيت لا يصلح لمثلها ، اذ تعيش فيه « خادمة » تعاشر الزوج معاشرة غير شرعية ..

وانتهى الزوج ، الى أن أبرز وثيقة عقد زواجه من هذه الخادمة !

هنالك أبرأته المسكينة من كل حق لها قبله .

وكان طلاق ..

* * *

ونبا بها مكانها فى البيت ، وفى محل العمل ، فباعت أثاثها كله ، وأخلت البيت ، ثم طلبت ندبها للعمل فى منطقة نائية فى أطراف جزيرة العرب ، فرارا من مواجهة عالم شهد ذلتها وانكسارها .

وهناك .. ما زالت المسكينة تعيش فى رهبنة قاسية وعزلة موحشة وفراغ أليم ، تتداوى باليأس وتعتصم بالجمود الذاهل عما كان وما قد يكون !

مسكينة !



((وتساءلت صاحبتي ضاحكة :

ـ عمن تتحدثين ؟ تلك الفتاة المسكينة لم يعد لها وجود الا فى خيالك . اما ((دلال)) فلا ترى اليـوم الا مزهوة متهللة ، وأنت فى صومعتك ترثين لها ! .

قلت واجمة :

ـ وما زلت حتى الساعة أرثى لها !)) .

سألتنى صاحبتى ونحن ننطلق ذات مساء الى شط النيل اثر نهار مجهد :

— هل سمعت النبأ العجيب ؟

قلت :

— أى نبأ ؟

أجابت وهى تحدق فى وجهى لترى وقع كلماتها :

— زميلتنا « دلال » رضيت أخيرا أن تتزوج من فلان ؟

فسألت بدورى :

— هذا الشخص البغيض الذى طالما اشمأزت منه وعافت رؤيته أو سماع اسمه ؟

قالت صاحبتى :

— أجل ، هو بعينه ، ولن يفرغ عجبى من هذا ؟!

وانتظرت هى أن ترانى أدهش للخبر وأشاركها العجب منه ، لكنى لم أزد على أن قلت فى بطء وبغير انفعال :

— وأى شىء فى ذاك ياصاحبتى ؟ وفيم الدهشة والليالى يلدن كل عجيبة ؟

فأنكرت صاحبتى ما سمعت ، وكأنها لا ترى فى عجيبات الدنيا ما يشبه هذا الزواج ، وراحت تحدثنى عما لا أجهل من رأى زميلتنا فى الرجل الذى رضيت به زوجا ، وتصف لى كيف كانت تمقته الى الحد الذى فكرت فيه أن تهجر مصر لمجرد أن سماءها تظل مخلوقا بغيضا كهذا ، تفرض عليها الصلات العائلية أن تلقاه ، وأن تتجرع دعابته السمجة ، وتودده البغيض .

وظلت صاحبتى تتحدث عن الزواج العجيب ، حتى عدنا الى مبيتنا بالقسم الداخلى فى الكلية ، فاذا الزميلات جميعا يخضن فى الموضوع نفسه ، ويرين فيه أحدوثة الموسم وأعجوبة الزمان !

وكنت أصغى الى ما يقلن دون أن أشارك فيه ، اذ كان لدى ما يشغلنى أكثر من زواج فلانة بفلان ..

وأوغل الليل فانفض السامر ، وأوينا الى مخادعنا وأنا شبه واثقة أن طيف « دلال » يهوم على مضاجع الزميلات جميعا .

ومضت أيام ثلاثة ، انقطع خلالها الحديث الا عن « دلال » التى سافرت فى اجازة قصيرة ، لكى يعقد لها على خطيبها .

وكانت قد سألت زميلة صديقة أن تنتظرها يوم عودتها على « رصيف المحطة » فى قطار التاسعة والنصف مساء ، ووعدتها بأكلة شهية من « السمان » !

ولست أدرى لماذا قبلت أن أصحب تلك الزميلة الى المحطة : أكان ذلك لمجرد الترويح عن نفسى بالابتعاد ساعة عن الكتب والمذكرات ؟ أم كان لأنى شغلت — دون أن أتنبه — بأمر « دلال » فأنا أتعجل رؤيتها لألمح الأثر الذى تركه الحادث الأخير على ملامحها ؟!

لم أكن أدرى على وجه التحديد ..

* * *

وتأخر القطار ساعتين عن موعده ، وأنا وزميلتى نتمشى على الرصيف فى ضجر ، وكلما هممنا بالعودة الى الكلية ، عدنا

فأشفقنا على « دلال » من السير وحدها فى طرقات العاصمة ، بعد أن انتصف الليل أو كاد ..

وحاولنا أن نتشاغل بالحديث لتخف عنا وطأة الانتظار الطويل، فلم نجد ما نتحدث فيه سوى قصة « دلال » . ثم أعيانا الحديث ولذنا بالصمت ، فلم نجد ما نفكر فيه غيرها .

حتى جاء القطار أخيرا ، فمضينا نشق طريقنا لنلتمس زميلتنا بين الركاب . وخيل الينا حينا أننا أضعناها وسط الزحام ، لكنها ما لبثت أن أطلت علينا من النافذة ، فكدنا نصيح بها : « أين السمان ؟ » لولا أن أسرعت فقدمت الينا هديتها صامتة ، فشغلنا بها عن النظر الى الفتاة وهى تسير بيننا شاحبة الوجه فاترة الخطو منقبضة الملامح ، تحاول عبثا أن تزور ابتسامة ترحيب برؤيتنا وشكر على ما تجشمنا من عناء انتظارها .

وكذلك شغلنا بعد وصولنا ، باعداد العشاء الشهى ، فلما آن لنا أن ننام ، انتبهنا فجأة الى أننا لم نهنىء زميلتنا بعقد قرانها ، فهرعنا الى غرفتها لنعتذر ، ونهنىء ، فما راعنا الا أن تقبلت التهنئات فى وجوم دون أن تجيب .

وخليناها لشأنها ، ونحن نشعر لها بما يشبه الرثاء .

وسرت الىّ عدوى الاهتمام بأمرها ، فلم أكد أخلو بنفسى وأفرغ للمطالعة ، حتى شق على أن أصرف ذهنى عن التفكير فى زميلة ظلت أعواما تغالب أمواج الدنيا ، حتى رسا بها زورقها أخيرا على شط كئيب !

كانت طفولتها ناعمة مدللة ، فقد جاءت أباها على كبر ، بعد أن تزوجت أختها الكبرى وأوحشت الدار بعدها . وكان أبوها عصاميا ، بنى مركزه بجهده الخاص ، وجمع ثروته بعرق الجبين ، فأتاحت له استقامته وحسن سمعته ، أن يصهر الى أسرة كبيرة فى منطقة تعترف بأرستقراطية التجارة .

وقدر للطفلة المليحة أن تدرك عهد انطلاق البنات من وراء أسوار الحريم الى آفاق الحياة الجديدة الحرة المتعلمة العاملة ، فذهبت الى مدرسة المدينة ثم نزحت الى العاصـمة لتستكمل الدراسة الثانوية ، وتخصصت من بعد ذلك فى التدريس أعواما ثلاثة ، جاءت بعدها الى الكلية زميلة مدرسة .

وأتاحت لنا اقامتنا المشتركة فى القسم الداخلى ، أن نعرف فيها الذكاء والطموح والغرور ، مع جموح الخيـال واسراف الأمـانى .

وكانت لنا مجالس سمر طوال الموسم الدراسى ، وما أحسب أن واحدة منا استأثرت بالحديث فيها كما فعلت « دلال » فقد مضت تمـلأ أمسـياتنا بقصص لا تنتهى عن أسرتها ، وزوج شقيقتها ، وعن ابن فلان بك ، وحفيد علان باشا ، و ... و ... ممن يتنافسون على الزواج منها .

* * *

ولعل موسم الصيف كان أحفل المواسم بالنسبة الى « دلال » فما تكاد الدراسة تبدأ حتى نراها قد عادت الينا ، ملأى الجعبة

بأحاديث عن الخطاب الشبان الذين لاحقوها طوال الصيف ، حتى كادوا يفسدون عليها متعتى العطلة والاصطياف !

ولم أكن — بحكم شواغل الدرس — أشترك فى مجالس السمر هذه الا بقدر ، لكن الزميلات كن يتطوعن فيروين لى على المائدة ، ما أتحفتهن به « دلال » من حكايات .

ولاحظنا عليها من بعد ذلك أنها كفت عن قضاء عطلات آخر الأسبوع عند أختها المقيمة بالقاهرة ، وقالت لنا « دلال » تعليلا لهذا ، انها تتجنب رؤية شاب من أقرباء زوج أختها ، يطاردها هناك ويضجرها بطمعه فى الزواج منها .

ولم نستغرب أن تطمع « دلال » فى أكثر من مدرس بالمدارس المتوسطة ، لكنا عجبنا لاسرافها فى احتقار شاب يعتبر كفئا لها فى السن والثقافة والمستوى الاجتماعى .

* * *

على أن عجبنا لم يطل ، فقد حدثتنا « دلال » بعد هذا عن رجل أحلامها الذى لن ترضى بسواه ! كان أستاذا فى أحد المعاهد العليا ، عرف بالميل الى الدعابة والتظرف والتأنق ، ولعله أدرك نقطة الضعف فى تلك الفتاة المليحة السمراء ، فمضى يشبع غرورها ويرضى زهوها وتعلقها بالثناء .

وأثملها هذا التملق ، وأدار رأسها ، فعشيت عيناها عن رؤية « فارس أحلامها » وهو يتودد الى أخرى ذات جمال ، ويرنو الى ثالثة ذات جاه وثراء !

كانت راضية عن نفسها ، مطمئنة الى غدها ، تذكر — فيما تذكر — أنها ولدت فى ليلة القدر ، وأن عرافا مغربيا تنبأ لها من سنوات ، بزوج مرموق الحاضر باهر المستقبل !

أكانت واهمة فى كل هذا ؟ أم أن كل ذلك قد كان ؟

لم تملك احدانا أن تقطع فى هذا برأى ، فلقد كنا جميعا نعلم أنها على صلة بعراف من المغاربة يقرأ الكف ويتنبأ بالمستقبل .

ومضى عام ، وعامان ، وثلاثة ، وخمسة ، و « دلال » لا تتخلى عن أملها وان بدا أن صاحبها قد فرغ منها .

وكان سلاحها فى محاربة اليأس منه ، سلاحا شاذا طالما هزئنا به وأنكرناه ، فكلما حاولت صديقة لها أن تفتح عينيها لترى أين هى من صاحبها الذى تتعلق به ، أنصتت برهة ثم اندفعت تعدو الى صديقها العراف المغربى ، وتسلمه كفها ليرى هل تغير المستقبل الذى طالعه لها من قبل ؟

وفاتها أن العراف أذكى من أن يكذب نفسه !

* * *

هذه هى قصة « دلال » كما عرفتها ، وكما تراءت لى ليلة عادت من رحلتها القصيرة الى بلدتها ، بعد أن عقد قرانها على الشاب البغيض .

ترى ما الذى دعاها الى اليأس من بطلها المختار الذى تشبثت به أعواما ستة ، على ما ذاقت من جفائه وصده ؟

وكيف رضيت بالخطيب الممقوت ، وقد كان — دون خلق الله جميعا — موضع احتقارها واشمئزازها ؟

أى طائف طاف بها فردها كافرة حتى بنفسها ؟!
أسئلة رددناها جميعا ، ثم لم نظفر لأحدها بجواب ..

* * *

ثم أبدت لنا الأيام ما كنا نجهل ، فعلمنا أن « دلال » تلقت ذات يوم دعوة لحضور حفلة زواج « فارس أحلامها » من أرملة كهلة ثرية ، فترنحت المسكينة من بشاعة اللطمة ، وتهاوت فوق الحطام المبعثر للتمثال الذى صاغته من أحلام شبابها وأفرغت عليه كل مشاعرها وأمانيها . وظلت هكذا مترنحة متهاوية ، تهذى بقصة الشباب الضائع والأمل الخاسر حتى أوشكت على التلف .

فى هذه اللحظة الكافرة الحاسمة ، أحست بمن يقف الى جانبها ويريد ليأخذ بيدها ، فانقادت شبه عمياء ، حتى اذا زايلها دوار الصدمة فتحت عينيها فاذا بها مقيدة الى الشاب الذى طالما أنكرته وصدت عنه مشمئزة .

وتلفتت حواليها لعلها ترى على الأفق شعاعا من نور يرد اليها خفقة الأمل ويغريها بالكفاح من جديد ، فلم تر الا ظلمات اليأس، والقهر ، والذل ، والخذلان !

واذ ذاك أغمضت عينيها من جديد ، وانقادت الى « المأذون » شبه ذاهلة ، فأوثق رباطها بمن كرهت !

وعندما سئلت السؤال التقليدى : هل تقبله زوجا ؟ أجابت على الفور بنعم ، لكنها أنكرت الصوت الذى أجاب ، وخيل اليها أنه صوت مخلوقة أخرى لا تعرفها !

* * *

ونقلت أنا من بعد ذاك الى الجامعة ، فلم أعد أرى « دلال » وان ظللت أذكرها من حين الى حين ، فأرثى لها ، وأتمثلها لا تزال تعيش مغمضة العينين على قذى ، كما كانت آخر عهدى بها .

حتى لقيت صديقة لها لم أكد أحدثها عن شعورى نحو « دلال » حتى انفجرت ضاحكة تقول :

— عمن تتحدثين ؟ تلك الفتاة المسكينة المقهورة التى تغمض عينيها وتستسلم ، لم يبق لها وجود الا فى خيالك ! أما « دلال » اليوم فلا ترى الا متهللة مزهوة مختالة .

سألت فى دهشة :

— اذن فالشاب لم يكن عند سوء ظنها به وقبح رأيها فيه ؟

أجابت محدثتى :

— بل قولى ان زمانه أسعفه بفرصة لم تكن فى الحسبان : أسعفه برجل من أصحاب النفوذ فى العهد الحاضر ، رقاه — لصلة بينهما قوية — من المدارس المتوسطة الى مدرسة عليا ، ووثب « بدلال » الى درجة أعلى من زميلاتها جميعا ، فأرضاها ذلك عن زوجها ، وانطلقت تباهينا — نحن صديقاتها وزميلاتها — بما لها من معرفة بأولى الأمر وصلة بذوى النفوذ ، وتختال بما أضافت الى زيها من ريشات زاهيات ، حتى ضقنا آخر الأمر بغرورها واختيالها فسميناها « ذات الريش » وأنت فى صومعتك ترثين لها وتتمثلينها مسكينة حزينة ، كيوم فارقتها !

قلت واجمة :

— وما زلت حتى الساعة أرثى لها .

على المنحدر



« الى التى رقصت على المنحدر ، معصوبة العينين ! »

لم أملك نفسي حين رأيتها ، من الشعور نحوها بالرحمة والرثاء.

كانت جالسة فى ركن من بهو الجلوس على ظهر الباخرة « الروضة » تلعب الورق مع نفر من الشباب اللاهين ، وفى زاوية من فمها المصبوغ بحمرة قانية ، سيجارة تعقد على الجمع دخانها المترنح وترسم فوقهم ظلالا ثملة تتلوى .

ويبدو اننى أطلت النظر اليها حتى تساءل من معى :

— أو تعرفينها ؟

فلم أجب ..

وخطوت فى بطء الى سور المركب ، أحدق فى البحر الممتد أمامى الى غير حد ، وأملأ صدرى من هوائه البارد الصافى .

وفى وقفتى تلك ، تناهت الىّ ضحكتها عالية رنانة ، مختلطة بقهقهة الرفاق ، فأصغيت اليها حزينة أتألم !

ذلك لأنى افتقدت فيها فتاة كنت أعرفها منذ أعوام ، غضة الشباب ذكية الملامح جمة الحياء ، تخطو خطواتها الأولى فى الميدان الأدبى ، طامحة متطلعة .

سعت الىّ ذات صباح ، متعثرة الخطوات وأهدتنى — على غير معرفة سابقة — كتابها الأول ، ووجهها الباسم مخضب بحمرة خفيفة من الصبا والخفر .

ورجت فى صوت خافت عذب ، أن تجد لدىّ من التوجيه والارشاد ما يثبت قدمها فى الميدان الذى سبقتها اليه .

فابتسمت لها ، ثم عكفت ليلتى تلك على قراءة كتابها ، فطالعتنى منه باكورة طيبة تبشر بنجاح أكيد .

وأصبح الصبح ، فاذا القلم فى يدى ، يسجل لها كلمة تقدير واعجاب ورجاء ، نشرتها لى « الأهرام » فى ذلك الحين .

ثم غابت عنى من بعد ذاك فى زحمة الحياة ، فلم أدر ان كان شىء قد عوق سيرها فى الطريق المرجو ؟ أم أنها لا تزال تحت غمار الجهاد الأول ، تكافح مصاعب الابتداء ، ولن تلبث أن تبدو من بين هذه الغمرات ، متألقة ساطعة ، أملا وثقة وتفاؤلا .

وقد بدت فعلا . بعد عامين .. جاءتنى تحمل مخطوطا لها ، ورجتنى — بصوت عالى النبرات — أن أكتب فيه كلمة ، تطبع مع المقدمة .

ثم انصرفت على عجل ، وثابة الخطوات سريعة الحركة ، وأنا أرنو اليها صامتة ، وقد خيل الىّ أن شيئا فيها تغير ..

ولو أنى سئلت يومئذ عن هذا الشىء لما عرفت بم أجيب ، فقد كانت هى هى ، بوجهها الوضاح وملامحها الذكية ، ولكنها بدت فى عينى كما لو كانت قد كبرت فى هذين العامين ، عشر سنين !

هل كان ذلك لأنها قد استبدلت بتورد الخفر والصبا ، حمرة الألوان والأصباغ ؟

أو كان لأن مسيرها فى الطريق الذى كانت تشفق منه ، قد أكسبها جرأة لم تبق لها على شىء من تعثر الخطوات ، وهمس الصوت ، وغير ذلك من ملامح الحداثة الغريرة ؟!

ربما ...

وانثنيت الى المخطوط أقلب فيه ، فاذا بى أمام ثلاث قصائد نظمها بعض الشعراء فى الاعجاب بالفجر الباسم ، ثم كلمتين لاثنين من رجالنا الكبار ، يحييان الأديبة الموهوبة .

وبعدهما .. خواطر للأديبة الشابة ، طليقة جريئة ، عن الحب والحيـاة .

قلت وأنا أعيد لها المخطوط :

— ما أكثر من عرفت من الشـعراء والأدباء فى تلك الفترة القصيرة ؟

فأجابت بادية الاعتزاز :

— انهم يقدرون مواهبى ، ويبشروننى بمجد زاه عريض ، ينتظرنى فى مستقبل قريب . أرجـو أن تكون « خواطرى » قد أعجبتك .

فأجبتها ، نصف مشفقة ، نصف مشجعة :

— لم تعودى فى حاجة الى اعجاب مثلى ، بعد أن شهد لك هؤلاء جميعا ، غير أن لى اليك نصيحة : لاتتعجلى هذا المستقبل الموعود ، وليكن سبيلك اليه ، العمل المضنى والجهاد المتصـل والكفاح الدائب ، لا اعجاب المعجبين ، وتملق المرائين ..

قالت وفى لهجتها نبرة استخفاف مشوب بالتهكم :

— سأعمل بنصيحتك ...

وانصرفت ، لأسمع من بعض الزملاء بعد أيام ، أنها كانت تذكرنى فى أحد النوادى الأدبية ، وتشك فى أنى بدأت أغار منها !

ولم لا ، وهذه كتبى ومؤلفاتى ، لم يتشرف أحدها بمقدمة من عظيم ، ولا توجته قصيدة من شاعر !؟

وازداد اشفاقى على الفتاة ..

* * *

ولم أرها بعد ذاك ، وان ترامت الىّ بعض أنبائها : فهى جمة النشاط جريئة مقدامة ، كثيرة التنقل ، تغشى النوادى والمجتمعات، وتختلط بالأدباء والشعراء ، وتندمج فى هـذه البيئة ، محوطة بالاعجاب .

ولم يحدث قط أن التقينا ، فلقد كنت أبعد الناس عن هـذه الأوساط ، اذ كانت شخصيتى الريفية لا تنسجم معها ، كما كانت شواغل الدرس والعمل تزهدنى فيها وتصرفنى عنها .

غير أنى كنت أقرأ للأديبة من حين الى حين ، مقالات وقصصا وأحاديث ، فى المجلات .

وقد عجبت لصاحبتى الأديبة ، كيف أمضت السنوات الطوال وهى حيث هى على السفح لا تبلغ الأعالى ، ولا ترتفع الى القمة ! لقد كتبت كثيرا ، وتنقلت من هنا الى هناك مجنونة بالشهرة حالمة بالمجد ، لكنها ظلت مع ذاك ، مغمورة غير لامعة ، تحمل ثمرات قلمها وتطوف بها على المطابع ومجلات الدرجة الثانية ، والثالثة ..

وكنت أعثر مصادفة على بعض هذه المجلات ، فأقرأ ما تكتب الأديبة ، وبى عجب من خمولها ، فما كان يعوزها جمال الأسلوب ، وسعة الخيال ، وحسن الصياغة ، وأناقة اللفظ . لكنى مالبثت أن

أحسست أن الحيوية تتسرب شيئا فشيئا من قلمها ، وان الاشراق يتلاشى رويدا رويدا من كتابتها ، فاذا هى ألفاظ منمقة ، وعبارات مرصوصة ، عليها ظل الموت .

وطالما ساءلت نفسى : ألا تحس الزميلة أنهـا بدأت تخسر معركتها ، ان لم تكافح كفاح الأبطال لتسترد بعض حيويتها المولية واشراقها الغارب ؟

وسرعان ما كنت أجد الجواب ، اذ أقرأ فى بعض المجلات من حين الى حين قصائد منظومة فى (الكوكب الساطع) و (الشمس المضيئة) وفى تمجيد آيات الابداع التى تصوغها الأنامل الساحرة .

وكان لهذه القصائد فى مسمعى وقع النعى ، فكأنما هى مرثية تشيع أدبية مرجوة ، جنى عليها المعجبون ، وعجل بنهايتها استبطاء النجاح ..

* * *

ثم كان هذا اللقاء العابر على ظهر « الروضة » اذ لمحتها خلال الظلال الثملة المترنحة على مائدة اللعب ، ووليت بعيدا ، وأنا أحس نحوها بالرحمة والرثاء .

وقد خيل الىّ أولا ، أنها ربما أدركت أخيرا أنها خسرت معركتها فى ميدان الأدب والصحافة فلم تظفر منها بعد الأعوام العشرة ، بغير مكان متواضع فى مجلة مغمورة ، أو قصيدة بلهاء من شاعر يتملق !
ومن ثم غيرت طريقها ، واتجهت الى ميدان آخر تجرب فيه حظها من جديد .

ولعل هذا هو ما دعانى الى أن أجيب بعض من سألونى عنها :

— أظنها كانت تشتغل بالصحافة والأدب حينا ، وأحسبنى لقيتها مرة أو مرتين .

غير أنى لم أكد أتم كلمتى ، حتى رأيتها تشق الجمع فى طريقها الىّ ، وتقبل علىّ بالتحية الحارة ، وهى تعجب للصدفة التى جمعتنا فى باخرة واحدة . ثم لحقت بأصحابها ، على أن تلقانى فى فرص أخرى ، خلال الأيام الخمسة الباقية لنا على متن البحر .

ولقيتنى كما وعدت ..

وقد جاءت فى هذه المرة وحدها ، وكنت أيضا وحدى ، فى جلسة متراخية متأملة ، بعيدا عن الضجيج والزحام .

وحين ألقت تحيتها علىّ ، خيل لى أن فى صوتها نبرة حزن مكتوم ، فزايلنى كل ما كنت أشعر به نحوها من صدود ، وأقبلت عليها أسائلها عن آخر ثمارها الأدبية .

قالت : كثيرة ، ورائعة ! لكنها مع الأسف منحوسة الحظ ، محرومة من حقها فى مكان بارز من كبريات الصحف والمجلات .

فسألتها :

— وهل تعرفين لهذا الحرمان سببا ؟

فهزت رأسها قائلة :

— أبدا أبدا ، وان كنت موقنة أن صحافتنا — ككل شىء عندنا — مسيرة بالأهواء والأغراض ، وأن النجاح فيها رهن بأى شىء الا الكفاية والمواهب .

فتأملتها مليا ثم رأيت من حقها عليّ أن أجيب :

— وهذا ياأخت سر تخلفك عما كنت جديرة به من مكانة ! فالذى أعلمه علم اليقين أن لا شىء فى الحياة ينال ، بغير جد ومقدرة وكفاية ، مهما يبد لك الأمر على عكس ذاك .

فاكفهرت ملامحها بغتة ، ثم سألتنى :

— فيم اذن تفسرين عدم تهافت دور النشر على آثار لى ، شهد لها أدباء وشعراء بالروعة والامتياز ؟ وبم تعللين زهد الصحف الكبرى فى مقالاتى ، وليست — فى رأى الخبراء — دون ما تنشره هذه الصحف من تفاهات ؟

فأشفقت عليها من الجواب ، وران علينا صمت ثقيل الوطأة ، قطعته هى بقولها :

— دعينا من هذا الآن ، فانى أعلم أن سوف يأتى يوم قريب ، يفرضنى على الذين زهدوا فىّ ، واسمحى لى أن آخذ منك حديثا عن رحلتك ، أضيفه الى مجموعة من الأحاديث ، جمعتها ممن لقيت فى سفرى من الشخصيات المعروفة ، وفى نيتى أن أنشرها تباعا فى مجلة ذات شأن .

فخجل تواضعى ، ولم أجد لدىّ ما يصلح لأن يضاف الى مجموعتها ، لكنها أصرت قائلة :

— فهلا حدثتنى عن حياتك الأدبية والعلمية ، وسر نجاحك فيها .

قلت مستدركة :

— ما تزال أمامى ياأخت مراحل شاقة وطويلة ، دون النجاح

الذى أرجوه . وانى لأكافح ، لكى أقطع الطريق المحفوف بالمخاطر والمكاره ، حتى أصل .

فعجبت الفتاة لما سمعت ، وسألت فى دهشة :

— أكان الكفاح وحده سلاحك فى المعركة ؟ ودليلك فيما قطعت من الطريق ؟ أو لم تلقى من يأخذ بيدك ويشق لك الطريق ، ويفسح أمامك المجال ؟

قلت فى تأكيد :

— لقيت ياسيدتى من علمنى أن الأمل بغير عمل ، سراب ... وأن الاتكال على الحظ والصدفة ومعونة الغير ، عبث ... وأن الكفر بالموازين الصحيحة والشك فى القيم الثابتة ، مضيعة وخسران ... وأن الموهبة وحدها لا تكفى لبلوغ القمة ، اذا لم يؤازرها طموح متوثب وجهد مبذول .

فبدا عليها الضيق مما أقول ، وهمت بالانصراف عنى ثم عادت تسألنى :

— فأى الدروس تعلمت ؟

أجبت :

— تعلمت أن طريق الفتاة فى ميدان الحياة العامة ، أشبه شىء بخيط دقيق معلق ، ان انحرفت عنه قيد شعرة ، سقطت فى الهاوية .

فظللت وجهها سحابة من كآبة وشحوب ، ثم ولت مدبرة ولم تعقب .

وانتهت الرحلة وأنا لا أرى صاحبتى الا من بعيد ، مسرفة فى

الضحك ، مقبلة على اللهو واللعب ، محاطة بالأصحاب والمعجبين ، وان بدا لى أنها تدارى هما وشجنا .

* * *

كان ذلك منذ خمسة أعوام ، غابت عنى فيهـا فلم أعلم من أخبارها سوى شائعات متناثرة تنبىء بأنها قد صارت مادة تقدمها بعض المجلات الرخيصة الى قرائها ، وتنسج حولها من القصص ما يثير .

حتى دعيت ذات يوم لزيارة معرض فنى لمثال مرجو موهوب ، وان يكن غير شهير ، وكم كانت دهشتى بالغة ، حين ألفيتنى أمام تمثال رائع لامرأة ترقص على المنحدر ، معصوبة العينين !

قال المثال وهو يرانى أحدق فى التمثال مأخوذة :

— أو أعجبك ؟

قلت :

— كأنى أعرف صاحبته ، وملهمته .

فألقى الشاب على التمثال نظرة حزينة ، ثم قال فى شرود :

— وأنا أيضا ، كنت أعرفها .

سألته فى لهفة :

— أو أصابها مكروه ؟

أجاب وعلى شفتيه ظل ابتسامة حزينة نحيلة :

— كلا ، ما تزال حيث هى على المنحـدر ، لكنها قد ماتت بالنسبة الى فتى وهبها قلبه ، فداست عليه فى طريقها الى قمة لن تبلغهـا .

وانصرف لشأنه واجما ، وتركنى أفكر فيه وفيها !

* * *

وقابلتنى « الأديبة » بعد أيام ، فاذا هى مخلوقة أخرى غير من عرفت ! .

كشف الزمان الغطاء عن عينيها ، فأدركت أخيرا أنها أضاعت حياتها لتكسب مجدا ضلت طريقها اليه ، فلما همت بالرجوع الى حيث تفتقد حبها القديم وفتاها الكريم ، ألفتهما حطاما قد صاغ منه المثال تمثالا لمن رقصت على المنحدر ، معصوبة العينين !

حواء !



« وما مأساتى فى الواقع سوى مأساة « حواء » فى لغزها المحير ، ومشاعرها المتضاربة ، وأهوائها الغامضة المعقدة . أو ان شئت فقولى : هى محنة حواء اذ تندفع مشوقة مسحورة وراء البعيد ، لا التماسا لشىء بعينه هناك ، ولكن لتستمرىء لذتها المرة فى معاناة القلق ، وافتقاد ذاهب تعلم يقينا أنه لن يعود . . . »

كان الليل قد انتصف أو كاد ، حين أويت الى مخدعى أثر عمل مجهد فى قاعة المكتبة فلم أكد أدنو من فراشى حتى لمحت احدى زميلاتى فى القسم الداخلى تقف بالباب مستأذنة فى الدخول.

ورحبت بها وأنا أرتاب فى يقظتى ولا أصدق عينى : واعجبا ! (حواء) تسعى الىّ من تلقاء نفسها فى مثل هذه الساعة من الليل؟! لقد قضت معنا نحو سبعة أشهر لم نشعر خلالها قط أنها منا ؟ كانت تمارس العمل الذى نمارسه ، وتسير على النمط المألوف الذى نسير عليه فى حياتنا المحصورة داخل النطاق المدرسى ، وتشاركنا فى طعامنا ومسكننا ، لكنا مع ذلك كنا نحس بها بعيدة عنا ، وكأنما تعيش وحدها داخل نطاق غير منظور ، يفصلها عن الدنيا من حولها .

وضقنا أول الأمر ، ثم ما لبثنا أن وجدناها مصدر متعة لنا ما بعدها متعة ، اذ طاب لنا أن نتخذ منها مادة لجديد من السمر ، ومشغلة تصرفنا حينا عن مألوف عيشنا الجاف الرتيب ، وتدفع عنا السآمة التى تغشى دنيانا الراكدة ، وتخفف شيئا من وطأة الملل الذى كان يرهق شبابنا الكادح ، ويمتص حيويتنا على مهل !

وأرسلت كل منا خيالها ملء عنانه ، يؤلف قصة تفسر ما نحس من غربة « حواء » وبعدها عنا ، وتعلل ما نلمح عليها دائما من شرود يجعلها تبدو شبه تائهة . ولم يكن عجبا أن تدور قصصنا جميعا حول المآسى العاطفية نجمع خيوطها من مطالعاتنا وأحلامنا ومشاعرنا ، ثم نفصلها على قد صاحبتنا ، فى براعة تتفاوت باختلاف شخصية كل منا وقدرتها على الحبك والتفنن !

حتى استنفدنا كل ما يمكن أن يقال ، ونضبت أخيلتنا فلم تعد قادرة على أن تجود بمزيد ، وعادت أمسياتنا الى تشابهها الممل وركودها الرتيب ، واذ ذاك بدأنا نضيق بتلك الفتـاة ، مدرسة الرسم ، التى تأبى أن تندمج فينا وتمتزج بنا ، فتواطأنا على أن ننبذها من مجتمعنا الصغير ، ونلقاها بالصمت والتجاهل والجفـاء .

وظلت مع ذلك على مألوف حالها ، تعيش فى دنياها الخاصة غير مكترثة بشيء مما نلقـاها به ، فلم يبق الا أن ننصرف عنها وندعها وشأنها ، وكأن لا وجود لها بيننا .

أفليس عجيبا بعد ذلك أن أراها تسعى الىّ فى غرفتى وانها لآخر من انتظر ؟

* * *

وكان الجو ما يزال ، وان انتصف الليل ، حارا ثقيلا يعطل الحياة فى الكون الهامد ويخنق أنفاس الكائنات ، ولم يكن ثمت ضوء سوى شعاع نحيل محتضر من القمر الغارب ، يتسلل الى غرفتى من بين الأشجار الفارعة التى وقفت هنالك جامدة خرساء !

ومددت يدى الى المصـباح أريد أن أضيء المكان ، لكن « حواء » ابتدرتنى قائلة بصوت خافت :

— أوثر ألا تفعلى ، فهل يضايقك هذا ؟

أجبت وأنا فى عجب من أمرها :

— كما تريدين يا حواء ! .. وسرت بها الى الشرفة حيث جلست الى جانبها وقد ألجمتنى الدهشة فما أجد شيئا أقوله .

وران علينا صمت مشحون بالقلق والانفعال ، مزقته صاحبتى بقولها :

— انى راحلة فى الغد ، وكنت أنتظر مطلع الصبح لأودعك ، غير أنى سمعت خطواتك وأنت تنصرفين الى مخدعك ، فتملكتنى رغبة مفاجئة فى أن أسعى اليك لانجو من شعور بالخوف يضغط على منذ بدأت أعد حقائبى للرحيل ، فيدفعنى بالرغم منى الى أن ألتمس صحبتك فى ليلتى الأخيرة . بيد أنى لا أريد أن أحول بينك وبين راحة النوم وأنا أعلم ما ينتظرك فى الصباح من عمل مرهق ، فنامى الآن ان شئت ولا تشغلى بالك بى ، فكل ما أبغيه هو ألا أقضى هذه الليلة وحيدة فى غرفتى ، فهل أضايقك ؟

أجبت وقد شجانى صوتها الحزين :

بل دعينى أونس وحدتك ، فلكم قطعت من ليال ساهرة منذ جئت الى هذه المدينة وأثقلتنى شواغل الدرس وهموم الغربة !

فلم تجب ، بل راحت تحدق ساهمة فى النجم الآفل ، وأنا أنظر اليها فى عطف وتأثر ، وبودى لو استطعت أن أرافقها فى مسراها النائه ، على أنها ما لبثت أن التفتت بغتة الىّ تسألنى فى همس حالم :

— لم لا تتكلمين ؟

أجبت فى حيرة : لأنى لا أجد ما أقول .

قالت :

— تسألين مثلا : مم أخاف ؟ أو تقولين لى ماذا حسبت مأساتى تكون ؟

فحاولت أن أكتم عنها ما كنا نخوض فيه من أمرها ، لكنى ألفيتنى أقول :

— حسبتك تجتازين محنة حب خائب ، وترسلين نفسك وراء ذاهب لن يعود .

فما راعنى الا أن سمعتها تقول بصوت يذوب أسى وشجنا :

— لم تبعدى كثيرا يا أختاه ، فأنا حقا أسرى ضالة تائهة وراء راحل لن يئوب ، لكن فراستك خانتك فى نقطة واحدة ، حين صورتنى لك ضحية حب فاشل ، وما مأساتى فى الواقع سوى مأساة « حواء » فى لغزها المحير ، وغموضها المربك ، ومشاعرها المتضاربة وأهوائها المعقدة . أو ان شئت فقولى هى محنة « حواء » اذ تندفع مشوقة مسحرة وراء السراب البعيد ، لا التماسا لشىء بعينه هناك ، ولكن لتستمرىء لذتها الأليمة فى معاناة القلق ومواجهة الأنواء ، وافتقاد ذاهب تعلم يقينا أنه لن يعود .

فهممت أن أرد عليها ، لكنها أشارت الىّ بيدها النحيلة أن أصمت ، واستطردت قائلة فى جد صارم :

— كأنك تنكرين أن أحدثك عن حواء وأنت من بناتها ؟ وانى لأعذرك ، فهناك من أسرار اللغز الأبدى ما تظل الواحدة منا تجهله حتى تعانى مثل التجربة التى عانيتها . فان كنت لا تزالين فى ريب مما أقول فاسمعى قصتى :

« لم أشعر نحوه بحب أو ما يشبه الحب . كل ما كان بيننا نوع من الألفة العابرة التى تخلقها المناسبة ثم تمضى بمضيها ،

فلا نفتقدها بعد ذاك . عرفته من قرب وأنا صبية ، لصداقة وثيقة بين أبوينا ، وألفت أن أراه فى مجلس والدى ، فتلفتنى اليه رقة حسه وصوفية مزاجه وشاعرية وجدانه . غير أننـــا ما لبثنا أن افترقنا : مات أبوه — رحمه الله — ونزحت أسرته الى ضيعتها فى الريف لترعى شئونها . ومضت أعوام انقطع فيها ما بيننا وان بقى هو على العهد يبعث الى والدى فى كل مناسبة ، رسائل تفيض حبا ووفاء وتشبثا بالود القديم .

ثم التقينا على غير موعـــد فى العاصمة ، حين جئت اليهـــا أستكمل دراستى العليا للفنون ، فأقبلنا نتذاكر ما مضى من عهد الصبا الباكر ، وقد أنسانى شجو الذكرى أن ألمح ما عرا الشاب من جفاف وذبول .

وسألته : ما بك ؟ فكأنما هجت بســؤالى أسى مطــويا ، وأثرت لواعج حبيسة آداها الكبت القاسى الطويل .

واندفع — مسلوب الارادة فيما يبدو — يشكو لى ما يجد من عذاب حب حرص على كتمانه رعاية لتقاليد قومنا .

ثم رنا الىّ خاشعا يتساءل فى لهفة : ان كان له أن يطمع فى أن تتزوج ؟

فلم أجب بل وليت عنه الأدبار هاربة كأنما أفر من مطارد . ولعمرى بم كنت أجيب ؟ هل كان من الممكن أن أعترف له بأنه ما خطر لى قط ببال منذ افتراقنا ، وأن قلبى لم يعد ملكا لىَ ؟ أو كان من المستطاع أن أواجهه بالحقيقة المرة ، وهى أن

مثله لا يشبه من قريب أو بعيد تلك الصورة التى رسمتها للزوج المختار ، وانى لا أجد فى ملامحه ظلا أو شبه ظل ، من الرجل الذى طالما تمثلته فى أحلامى ورؤاى ، فلما لقيته لم يعد لى فى الدنيا مطمع غير أن أكون له زوجة ؟

وغاب المسكين عنى شهورا ثم عاد يلتمس لقائى فأبيت ، رحمة به وأملا فى أن يريحه اليأس منى فينصرف الى حاله . واذ مضى عام بأكمله لم أسمع عنه خبرا ، ظننت أنه قد ظفر أخيرا بما رجوته له من راحة اليأس ، أو لعلى حملت نفسى على مثل هذا الظن ، اذ كنت حينئذ أناضل من أجل حبى ، ولا أريد أن أشغل بسواه .

وأهل عام جديد ، وجاء معه الحبيب المنتظر ، واستعدت الأسرة للاحتفال بخطبتنا وأنا فى نشوة غامرة من السعادة والفرح، فلما كان اليوم الموعود ، فوجئت بالشاب المسكين يقف بباب بيتنا شاحب الوجه زائغ البصر فهممت بأن أصد عنه ، لولا أن بدا لى أن أزكى عن سعادتى ونعيم حبى ، بكلمة طيبة أواسى بها ذاك الذى أضناه حب يائس .

فدنوت منه أقول :

— كم يسعدنى أن أسمع عنك قريبا ، أنك لقيت من تنسيك اياى ؟

فأجاب بصوت أجش جريح : تظنين ؟

قلت فى اصرار : بل أنا واثقة ، وأى جرح يا أخى لا يداويه الزمن ؟

فمد يده يصافحنى مهنئا مباركا ويدعو لى بالهناءة والتوفيق .

وانصرف كما دخل ، متعثر الخطـو مبعثر النظرات ، فما مضت دقائق حتى روعنا بصيحات استغاثة تعـلو من قريب ، فهرعنا الى نوافذ البيت ، لنرى الشاب الشهيد صريعا على مقربة من باب البيت ، وقد صدمته سيارة عابرة فألقت به على الثرى جثة هامدة ممزقة .

ومن يومها يازميلتى فقدت نفسى ! .. أذهلنى المصاب حينا ، فلما مددت يدى الى كأسى المترعة بأفراح الحب والحياة ، ألفيتها ممتزجة بالدم الذى شهدته مراقا على قارعة الطريق . هنـالك ألقيت الكأس من يدى ، ونبذت الأهل والحبيب ، وجئت أنشد فى وحدتى وفى استغراق العمل الكادح ، راحة النسيان .

لكن طيف الشهيد ما زال يراودنى فى الغـداة والعشى ، فأهيم فى أثره وهو يعبر متاهة العدم شريد الخطو ضائع النظرات.

وأنام فيلم بى الطيف مناديا من بعيـد ، فأسرى فى ظلمات الدجى وغيبـوبة الحـلم ، وراء الصـوت الجريح الصدى الممزق النبرات !

وأسلمت نفسى الى الأمس الضائع ، ووضعت أصابعى فى أذنى كيلا يصل الى مسمعى نداء الحبيب الحى الذى ينتظر ايابى من رحلتى التائهة .

ووجدت فى هذا الاستسلام لذة مضنية ، وخامرتنى سكينة نفسية لم أذق لها طعما منذ وقعت المأساة .

لكنها — واحسرتاه — سكينة لم تطل ، فمنذ شهر أو بعض شهر بدأت أشعر أن الطيف الذى أتبعه ، يبدو مرة فى صورة الشهيد الراحل ، وأخرى فى صورة الحبيب الحى !

وكذلك اختلط صوتاهما بحيث لم أعد أميز أيهما الذى يسرى بى فى غمرات الحلم ، ويسكب فى مسمعى نجوى العذاب وآية الاستشهاد !

وبغتة أصغيت الى صوت رهيب ينبعث ملء غيبوبتى : أمأساة ثانية وشهيد جديد ؟!

فصحوت مروعة ، وقد قررت أن أعانى التجربة المرة ، ولأكن أنا الضحية فى هذه الحال .

غدا أعود الى خطيبى الذى يوشك على التلف ، فأدعه يمضى بى كما يشاء ، بعيدا عن هذا البلد الذى شهد المأساة الفاجعة . وما أمنى نفسى بالنسيان ، لكنى سأبذل جهدى كيلا أحطم البرىء الحى ، وان قاسيت فى هذا السبيل أفدح العذاب .

وكنت قد عولت على أن أهب ليلتى هذه للماضى الذى أوشك أن أودعه ، لكن موجة من الذعر اجتاحتنى فى وحدتى ، فسعيت اليك كما ترين » .

* * *

وكفت « حواء » عن الكلام ، وعاد الصمت فران علينا وعلى الكون الهامد من حولنا ، حتى علا صياح الديكة ممزقا سكون الليل ، مؤذنا بصبح جديد .

وكان آخر عهدى بصاحبتى ساعة وقفت تودعنى فى ابتسامة حزينة ثم جمعت كيانهـا المتعب ومضت عنى ووجهها الشاحب يغمره هدوء الاستسلام .

وغابت عنى فى زحمة الدنيا وطواها الغمار فلم أعد أسمع عنها ، غير أن ذكراها بقيت تعاودنى من حين الى حين ، فأسأل : ترى هل نسيت المصرع الدامى ؟

وأوشك أن أجيب « هيهات ! » لكنى أذكر كلمتها الأخيرة للشـهيد قبيل مصرعه « وأى جـرح لا يداويه الزمن ! ؟ » فأهز رأسى فى ارتياب ، وأمسك عما هممت به من جواب !

***

وفى هذا الصيف ، التقيت مصادفة باحدى زميلاتى القديمات على ساحل البحر ، فراحت تنفض الى ما جمعت فى جعبتها من أخبار الصواحب والزميلات .

ولم ألق اليها بالا وهى تثرثر بأنباء فلانة وعلانة ، حتى سمعتها فجأة تقول :

— وصاحبتنا مدرسة الرسم « التائهة » ..

فهتفت متعجلة فى لهفة :

— مالها !

أجابت :

— استقر بها المطاف أخيرا وكنا نظن أنها ستقضى العمر فى غيبوبة ! لقد أيقظتها عصى « كيوبيد » من غيبوبتها ، ورد الزواج

اليها وعيها الشارد ، فلو رأيتها بالأمس مع زوجها ، تمرح على رمال الساحل وتتوثب غبطة وفرحة ..

فهتفت دون أن أنتظر مزيدا .

— أين بالله ؟ أجابت وهى تشير الى صخرة ناتئة من الساحل :

— هناك .. حيث تأتى فى كل صباح ، فتثب من الصخرة الى الماء فى نشوة ، وتظل بين أحضان الموج ساعة أو أكثر ، ثم تخرج فتستلقى على الرمال بين يدى زوجها الذى يكاد يذوب هياما بها !

فتبسمت ضاحكة من قولها ، ثم خليتها ومضيت أعد ما بقى من ساعات اليوم ، فى انتظار الصبح ، لأرى « حواء » وقد أدارت وجهها لماض لن يعود ، ونسيت الذى ضيعه حبها ، وأقبلت على الحياة تعب من أفراحها وتستطيب مذاقها غير مشوب بطعم الدم المراق .

لكن الصبح طلع علىّ وأنا فى طريقى الى العاصمة حيث أمسكتنى بها مشاغلى أياما ، فلما رجعت الى المصيف ، هرعت فى أول صبح الى صخرة الساحل ، وأنا أعجب لتقلبات حواء ..

وهناك سألت عنها ، فقالت الزميلة الواعية للأخبار ، وهى لا تخفى دهشتها لسؤالى :

— كيف ، ألم يبلغك النبأ ؟ ..

فوجمت لحظة ، ورحت أحاول أن أجمع ذاكرتى المشردة حتى ذكرت انى لمحت فى احدى الصحف عنوانا لخبر عن غريقة شابة ، ثم لا أدرى ما الذى صرفنى عن قراءة الخبر ..

ولم أجرؤ على أن أستزيد صاحبتى من تفاصيل المأساة ، بل مضيت أحدق فى الموج ، ثم سمعتنى أسأل زميلتى :

– متى كان ذلك ؟

أجـابت :

– فى أصيل اليوم الأول من العام الهجرى الجديد ، ومن عجب أنها كانت تجيد السباحة ..

فأخذتنى رجفة انخلع لها قلبى وزلزلت كيانى كله . ففى مثل هذا اليوم من ثلاثة أعوام مضت ، كان مصرع الشهيد !!!

حطام



« وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور . ! »

كنت أراها فى صحبة أمها ، فيخيل لى أنى أشهد صورة مؤثرة من هموم الزمن ، حين يقذف بأنثيين ضعيفتين فى تيه الحياة ، ويرمى بهما فى مهب الرياح ، وما منهما الا عاجزة عزلاء !

على أن أيامهما لم تكن تخلو من لحظات يلمع فيها وميض الأمل ، أو تنبثق فيها شرارة مضيئة من جهاد الدنيا ، وان بقيت أنا رغم هذا ، لا أرى فيهما الا صورة الهموم !

ولم أكن أول عهدى بهما أدرى أيتهما أحق بالرحمة : أهذه الشابة المحرومة التى تتكىء حياتها على شيخوخة أمها الواهنة ؟ أم تلك الأم العجوز التى قطعت رحلة الحياة فى جهاد شاق مرير ، وعلى كاهلها الضعيف حمل فتاة لا مال لها ولا رجال ؟

لكنى ما لبثت أن رأيت الفتاة أحق بالرثاء ، وبدا لى أن الأم عما قريب تمضى ، فتراح من متاعب العيش وتنعم برقاد عميق طويل . أما الابنة فما يزال بينها وبين ضجعة الموت المريحة ، أعوام من يدرى الى أى مدى تطول ؟

وهكذا أهمنى أمر الفتاة ، فلم تكن تغادرنا مع أمها بعد احدى زوراتها ، الا حسبتها غادية علينا فى يوم قابل ، وحيدة محزونة ، قد تداعى الجدار الواهى الذى تتكىء عليه ، وحار رمادا !

* * *

ولدت ضعيفة هزيلة ، وأنذر الطبيب بموتها ، ان لم تظفر بعناية موفورة ، ورعاية بالغة .

وكانت وحيدة أمها ، أما أبوها فكان له بنون أخر ، من زوجة سابقة ، أضاعها السكر فيما أضاع .

وقد عكفت الأم على وحيدتها ترعاها فى طفولة ضعيفة معرضة للموت فى كل آن ، ثم حملتها فى مستهل عامها الثالث ، الى مفتش صحة الحى .. طفلة ذات وجه مليح ، على هيكل من عظام !

قال الطبيب بعد فحص دقيق : « لقد جازت منطقة الخطر ، لكن حذار ! ان بها علة فى صمامات القلب ، وتحتاج الى عناية صحية ما عاشت ! » .

فعادت بها الأم الى المنزل ، تحمل كلمات الطبيب الى أبيها .

لكن الأب لم يكن هناك ..

لقد تزوج من ثالثة ، وخلى هذه لتتفرغ للعناية بطفلتها العليلة !

* * *

وشاع فى الحى بعد حين ، أنه تزوج من أخت زوجته ، وهى أرملة ذات قوة وجمال ، مات عنها زوجها وترك لها ابنتين ، تلميذتين فى المدرسة .

ورآه الناس بعد ذلك يسعى فى خدمة الزوجة الجديدة وابنتيها ، ذاهبا آيبا ، مصبحا ممسيا !

وانتظروا أن يروا الأخت المهجورة تنأى عن مسرح المأساة ، وتمضى بطفلتها العليلة بعيدا عن المشهد القاسى الأليم ، لكن السبل سدت أمامها وحالت دون فرارها الى حيث لا ترى أختها ، فقد كانت هذه الأخت تبسط عليها ظلا من حمايتها ، وتؤدى لها من

مرتب الزوج — الذى كان لها التصرف المطلق فيــه — ثلاثة جنيهات كل شهر نفقة للطفلة .

ثم كانت بينهما وراء ذلك مصالح متشابكة متداخلة : بينهما هذا الزوج الذى تزوجهما واحدة بعد الأخرى ، وبينهما ميراث مشترك فى البيت الذى تسكن الأم فى حجرة منه ، وتعيش على ما يفضل من ريعه الضئيل .

وبينهما روابط أخرى خفية ، تمسكهما معا وان لم ترغبا فى ذاك .

وهكذا ظلت العلاقة بينهما حائرة مذبذبة ، لا مقطوعــة ولا موصولة .. تتحادثان ، وتتلاقيان ، وتتحاسبان ، وبين نفسيهما سدود وحواجز ذات طول وعرض ، بل ذات غور بعيد !

وفرض الأمر الواقع على الزوجة المهجــورة أن تستسلم ؛ فسكنت حيث هى ، تضع عينا على طفلتها ، وترسل الأخرى وراء الزوج ، والضرة الأخت !

ومضت أعوام ثلاثة ، جعلت من الطفلة العليلة صبية وضيئة على نحولها ، فأدخلتها أمها المدرسة ، على قلة من كن يتعلمن من بنات الحى ، فى عهدها ذاك .

لقد كانت تقفو خطوات أختهــا مسلوبة الارادة ، وتخضع — برغمها — لسلطانها الذى فرضته على كل من حولها !

تصرخ فى كل آن : « انى مبتعدة عنها » وهى فى الواقع تزداد منها اقترابا وبها تأثرا ، ولا تملك من أمر نفسها شيئا . بل لم تعد ترى فى أفقها سوى منظر واحد .. منظر الزوج يسعى فى خدمة

ابنتى أختها الضرة ، وهما تروحان الى المدرسة وتغدوان : نظيفتين ، وجيهتين ، مترفعتين !

ومن ثم أصرت على أن تذهب طفلتها الى المدرسة ..

* * *

وكانت الدراسة شاقة على ذات القلب الضعيف ، لكنها استندت على أمها ، وأخذت من قواها وحيويتها ما غالبت به الضعف وهى تجرى لاهثة لتلحق بابنتى خالتها ، وقد صارتا ناظرتين « قد الدنيا » ، ودنيا القوم لا تعرف للفتاة عندهم ما هو أبعد ولا أعلى من وظيفة التدريس بمدرسة الحكومة !

وقد ظفرت « عديلة » بالوظيفة الموموقة .

غير أن القلب العليل لم يكن ليحتمل اجهاد التدريس ست ساعات فى اليوم ، غير الذيول والملحقات ، فكانت العلة تعتادها فتلقيها آخر النهار على فراشها .. واهنة مجهدة ، متلاحقة الأنفاس.

ونصح الناصحون من أهل الخير ، لأمها أن تزوجها لتستريح من الشغل ، ففعلت .. أسلمتها الى أول خاطب ، وقد أرضاها منه أنه « أفندى ملء ثيابه » فلم يعنها ما وراء ذلك من ظروف حياته ، أو موقف أسرته من هذا الزواج ، بعليلة غير ذات حسب أو ثراء ..

* * *

ولأول مرة رأيناها تسير بغير أمها ..

لقد استبدلت بها هذا « الأفندى » تخرج فى صحبته ، وتتكىء على ذراعه .

وتوارت الشيخة بعيدا ، وان بقيت هناك ترعى شؤون الدار ،

وتجهد شيخوختها فى خدمة العروسين ، راضية من الدنيا بدخلة الرجل ، وسماع صوته يتردد فى أرجاء عالمها المحدود المقفر .

* * *

وغابت عنا « عديلة » زمنا ..

وكذلك فعلت أمها ..

لكنا لم ننكر تلك الغيبة ، فقد كان للعروس من دنياها الجديدة ما يشغلها عمن تعرف ، أما الأم فما كانت تزورنا من قبل الا التماسا للمشورة والرأى فيما تعانى وتواجه من شؤون الحياة، أما وقد صار الى جانبها رجل ، فما حاجتها الى معونة الغرباء ؟

وقال قائل منا :

« يالها من نهاية سعيدة ، لقصة حرمان طويل ، وعناء مرير ! » .

لكن القصة لم تكن قد انتهت بعد ..

وانما كانت هناك بقية ! !

* * *

لمحناها ذات مساء تدنو من دارنا بخطوات وئيدة بادية الاعياء ، ثم لم تكد تبلغ الباب حتى وقفت أمامنا جامدة النظرة ، شاحبة الوجه ، مرتعدة الأوصال ، فأحطنا بها نرعاها ، دون أن يجرؤ أحدنا على أن يسألها عما بها ، فما كنا بحاجة لمن ينبئنا أن كارثة شنعاء ، ألمت بها .

ولم يطل بنا الوقت لنعرف ما هى ، فان هذه الشيخة التعسة لم تجىء الا لتبلغنا نبأها !

لقد مضى « الأفندى العريس » .

أنكر عليه أبوه زواجه من « عديلة » ، وهدده بحرمانه من ميراثه ان لم يدعها ويستبدل بها بنت عمه .. تلك التى لم تجرحها عين ولم يبتذلها احتراف . فهرع الفتى يسترضى أباه ، وقد شاقه أن يفرح من جديد ، وينال العروس الكريمة المصونة ، بعد أن فرغ من تلك التى أدارت رأسه حينا بسحر علمها وجاه وظيفتها !

انه ما أحب فيها سوى « الست المعلمة » فلما ضمها بيته ، وتركت وظيفتها ، لم يعد يراها الا بعين أبيه : مخلوقة عادية معتلة لا مال لها ولا رجال !

ولقد تشبثت به الأم تبتغى أن يستبقى ابنتها — حتى بعد زواجه الجديد — رحمة بها وقد تركت من أجله وظيفتها التى كانت لها مصدر الرزق ، لكنه انطلق فى سبيله لا يبالى ، وخلفها على فراش العرس حطام حياة ، وأشلاء أمل !

وهمت باللحاق به ، فاذا هى جامدة الحركة مشلولة الأطراف ، فلما صرخت تستغيث ، لم تجد لسانها !

اختنقت صرختها فى قلبها المنهوك بعلته ، فلم يند منها سوى لجلجة منتحبة !

* * *

وعاشت بعد ذلك عاما .. مشلولة خرساء ، تدير عينيها فيما حولها فلا تجد سوى ظلال حلم تلاشى ، وأنقاض عمر تداعى .. فاذا أغمضت عينيها من هول ما ترى ، أفزعتها أشباح ملعونة : من

عقم الأمل ، وضلة الرجاء ، وخيبة المسعى . وضيعة الحياة !

ويستبد بها الذعر أحيانا فتهم بالفرار ، ولكن .. كيف ؟

وكذلك ردهما الزمن : أنثيين ضعيفتين ، مهزولتين ..

عجوز حطمتها السنون وهدتها الأحزان ، تحوم حول فراش وحيدتها ، وتجرع ثمالة الكأس التى ملأتها بالعرق والدموع !

وعليلة تعسة ، كاملة الوعى سليمة الادراك ، تتعذب فى صمت، وتتمزق دون أن تنفس عن كربتها بكلمة !

***

حتى كان أصيل قائظ مرهق من شهر رمضان الفائت ، وقد جلسنا قبيل الغروب الى مائدة الافطار ، ننتظر غائبا من الأسرة ، ونشفق عليه من حر الطريق ، فلما ضرب المدفع ، بدأنا نتناول طعامنا فى وجوم يغشاه القلق !

وعاد فنعى « عديلة » الينا ..

لقد رحمها الله أخيرا فماتت ، وحُملت الى التراب فى مشهد متواضع لم يشهده سوى جار كريم ، وزوج بنت الخالة !

أما الأم فظلت بين خرائب الحياة التى تهدمت ، تصغى فى ذهول الى صيحات اخوة الميتة لأبيها ، وهم يسألونها عما تركت أختهم العزيزة المتوفاة ؟

وأشارت الثاكلة الى خزانة كبيرة ، بجانب فراش الراحلة ،

فأسرع اليها الاخوة وفتحوها فى عنف ، فاذا مجموعة من ثياب العــرس .

وجلسوا يتنازعونها ، ويختصــمون فيها ، ويختلفون على قسمتها ، وصوت المقرىء يسمع من بعيد ، مرددا — من مذياع فى الحارة — قوله تعالى :

« كل نفس ذائقة الموت ، وانما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ! » .

وراء سراب !



((يحسبه الظمآن ماء ..))

التقت به على غير موعد ، فمرت به عابرة لم تكد تحس وجوده الا ريثما طاف بها وبمن معها معالم المنطقة الأثرية ، حتى اذا انتهت الرحلة وقفت معه برهة لتعبر له عن شكرها وتقديرها ، ثم رجعت من حيث أتت الى عملها تنسى فيه نفسها .

وأما هو ، فما كادت تغيب عن عينيه حتى ألفى خواطره تحوم حولها وتتشبث بها .

لقد مرت به قبلها ألوف من النساء ، اذ أتيح له — كدليل للآثار — أن يلقى أصنافا منهن ، من كل جنس وكل لون ، وكل دين ، لكنه لم يلتفت الا الى هذه الشابة الوديعة السمراء . ووجد نفسه يتساءل عما لفته اليها ، فاعترف فيما بينه وبين نفسه انها ليست بارعة الحسن ولا غضة الصبا ، ولم يفته كذلك أن يلمح فى حركاتها الرزينة وزيها المحتشم أثر الحياة الجادة العاملة ، ولا غاب عنه ذلك الطابع الذى لا تكاد تخطئه العين فى (المعلمات) حين يطول عهدهن بالمهنة الشاقة .

فهل تراه رق لهذا الظل من الأسى يغشى وجهها الأسمر النحيل ، وتلك اللمحة من الحزن والشجو تبدو فى عينيها الحالمتين ؟

ربما .. وحاول أن يصرف خواطره عنها فأفلح الى حين ، حتى اذا أقبل الليل وأوى الى غرفته فى استراحة الآثار ، ألفى طيفها ينتظره هناك ، فأمضى ليلة مؤرقا يحدق فى الطيف الرقيق الهائم ، وقد غلبه شعور قوى بأن صاحبته يتيمة مثله ، تضنيها الوحشة ويرهقها الشجن .

وكأنما وجد فى هذا الشعور متنفسا يخفف عنه وطأة الشجو

المكبوت ، فلطالما أخجله أن يحس مرارة اليتم وقد بلغ مبلغ الرجال ! وطالما أنكر على نفسه أن تنزع أبدا الى ذكرى اللحظة التعسة التى مات فيها أبوه منذ عشر سنوات ؟

عشر سنوات ؟! لكأنها عشر دقائق لا تزيد ، فما يزال يجد طعم المصاب الفادح مرا فى مذاقه ، وما يزال يجد لوعة الفجيعة لاذعة حارة جديدة كأن لم تمض عليها ساعة من نهار .

ومع ذلك تبدو له هذه الساعة كأنها دهور وأحقاب ، حتى ليحتاج — كلما كر راجعا الى ذكرى وفاة أبيه — أن يقطع رحلة طويلة منهكة يرى خلالها أمه وقد نزعت عنها ثوب الحداد ، ثم ولت هاربة من ولدها حتى لا ترى فيه صورة ماضيها الميت ، أو تستعيد به ذكرى الأشهر التى قضتها فى ترمل كئيب ! ولعلها طوت ذكراه مع ذكرى أبيه ، أما هو فما ينساها قط وما ينسى أباه !

كل ما استطاعه أن يكبت احساسه باليتم ، وأن يروض نفسه على التصبر والتجمل ، وكان هذا يضنيه ويلقى على صدره حملا ثقيلا يكاد لا يستطيع معه أن يتنفس ، فلما لاحت الفتاة فى أفقه هاج مرآها الحزين شجوه الراقد ، فتشبث بطيفها واستعبر باكيا ، لأول مرة منذ مات أبوه ..

* * *

وهنالك على بعد بضعة عشر ميلا من مأواه ، كانت الفتاة فى غرفتها وحيدة قد نسيته تماما ، فما كان بالنسبة اليها غير واحد من الرجال الذين تلقاهم بحكم العمل ، أو تجمعها بهم مناسبة عابرة ، ثم يمضون فلا يتركون وراءهم أى أثر . مالها وللرجال !

بل مالها وللناس جميعا ! انها لتعيش فى عالمها الخاص منطوية على نفسها غريبة عمن حولها ، وقد ألفت هذا الفراغ بعد أن ضاقت به سنين عددا ، وعادت تستمرىء طعم غربتها النفسية بعد أن كادت تتلفها . ويا لله كم دفعت لكى تظفر بهذا السكون الذى تحسه كلما أغلقت بابها عليها فلم تعد تشعر بما وراءه ؟ !

كان شعورها بالغربة مبكرا ، فمنذ خرجت الى دنيا الناس وهى تجد نفسها فى عالم غريب عليها بأوضاعه المادية ومثله الواقعية ومقاييسه النفعية ! ولما حاولت أن تندمج فيه حال دون ذلك حسها المرهف ومزاجها الشاعرى الرقيق ، حتى وقر فى نفسها آخر الأمر أن لا مكان لها فى مجتمع كهذا ، يرى فى رقتها ضعفا وفى عاطفتها خورا ، وفى شاعريتها ضربا من الوهم اذ لم يكن مسا من خبال ..

وهى تشهد وتقرأ وتسمع كل يوم عن مآسى الصراع المادى بين البشر ، فيروعها أن يقتل الابن أباه تعجلا لميراث ضئيل ، وأن يبيع الصديق صديقه والزوج زوجته بثمن بخس دراهم معدودات ! وأن تكون الحياة سوقا تضج بالمساومة الرخيصة وتنفق فيها بضاعة العاطفة والنبل والشرف والوفاء ! وكان من الممكن أن تظل بمنأى عن هذه السوق لولا أن يد الدنيا ساقتها بعنف وألقت بها هناك كصنف من البضاعة الآدمية ! ذلك يوم رُشحت للزواج من رجل لا تعرفه ، وجاءت نسوة من أهله (لمعاينة البضاعة) فما انصرفن الا بعد أن مزقن أعصابها من طول ما أجهدنها . وكان قرارهن عند الانصراف أنهن سوف يعاودن الفحص مرة أخرى فى ضوء النهار لأن زيارة المساء لا تكفى لحكم صادق .

ولم تحتمل المسكينة أن يتكرر عرضها فى السوق مرة ثانية ، فقد كان « البوار » أهون عليها من أن تفحص فحص الشاة فى سوق الغنم ! ومن عجب أن هذه المحنة لم تحملها على الكفر بما آمنت به من قيم ، وانما حملتها على سوء الظن بالدنيا والناس ، وكل ذنبهم لديها أنهم يقيسون مثلها بمقاييس لا تعترف بها ، ويقوّمون « البضاعة » بموازين رجعية مهينة ، لا تختلف عن تلك التى كانت تقوم بها الاناث فى سوق الرقيق !

ولم تكن من الغفلة بحيث لا تدرك أن سعرها فى هذه السوق رخيص هين ، اذا أهدرت ميزتها من ثقافة عالية وخلق كريم وقلب طاهر نقى ، ومن ثم قررت على مضض ألا تمتهن كرامتها بالنزول الى السوق ، وطوت أحلام أنوثتها ونوازع فطرتها فى شجاعة قاربت الاستشهاد . ونامت على وهم « النصر » بعد أن طال عليها السهاد ..

* * *

وذات صباح ، حمل اليها الحاجب بطاقة زائر يستأذن فى مقابلتها ، فقرأت اسمه على البطاقة مرتين وثلاثا وخمسا ، دون أن تذكر صاحبه ، ثم أذنت له وهى تحسب أنه جاء لعمل ، فلما رأته بالباب تذكرت أنه دليل الآثار الذى صحبها فى رحلة الأمس القريب .

وتساءلت وهى ترد تحيته : ترى ما الذى جاء به ، ومبلغ علمها أن لا صلة له بعملها .

واتنظرت فترة طويلة ، قبل أن يجمع الشاب نفسه ويقول فى صوت خفيض مجهد :

— معذرة يا آنسة ، هذا خطاب كتبته بالرغم منى اثر ليلة مسهدة ، وقد لمحت فيك من مخايل النبل ما شجعنى على تقديمه اليك ، ولست أحرجك فأسألك ردا ، وانما رجائى كله أن تقرئيه بعد أن أنصرف .

واستأذن على عجل ، ولما همت بقراءة الخطاب أحست خوفا مبهما وقلقا غامضا ، فآثرت أن تمضى الى مخدعها لتقرأه هناك حيث تكون فى مأمن من طارق يدخل عليها مكتبها وهى تقرأ خطابا لا تدرى مافيه .

وعجبت لنفسها وهى تخفى الخطاب فى حقيبتها كأنما خشيت أن تراه عيون من حولها ، ثم تسرع الى غرفتها غير منتظرة فسحة الظهر .

وأغلقت عليها بابها ، ووقفت برهة لا تجرؤ على فض الخطاب . ثم قاومت ضعفها وراحت تقرأ ، فما أتمته حتى تهاوت على أقرب مقعد وأغمضت عينيها فى فتور حالم ..

وفى الحلم راحت تستعيد ما قرأت ، فتشعر بنشوة غامرة لم يكن لها عهد بمثلها من قبل ..

حتى نبهها رنين جرس الغداء ، فأفاقت من غفوتها وهى تحسب أن الأمر كله لا يعدو أن يكون حلما عابرا فى الكرى ..

ولكنها لمحت الرسالة فى يدها ، فعاودت القراءة بملء يقظتها . وزلزلها انفعال عاصف لم تعرف معه كيف تتماسك ، فكبر

عليها أن تذوب صلابتها عند أول نداء للحب ، وأن تخونها مقاومتها — التى واجهت بها الحرمان سنين طويلة — أمام أول طارق ، ومن ثم راحت فى استماتة يائسة ، تبرر هزيمتها بأنها ما كفرت من قبل بالناس الا لأنها افتقدت فيهم مثل هذا الرجل الذى بلغ من رقة حسه وصفاء وجدانه ، أن أحس غربتها النفسية وشجوها المقنع بالتجمل والمداراة ، وكشف عما ينطوى عليه كيانها الضامر المجهد ، من جمال معنوى لم يكترث به سواه .

وأراحها هذا التبرير ، فعادت للمرة العاشرة تتلو رسالته بقلب خافق ووجدان مستثار ، وترقب فى شغف وقلق ولهفة ، ذوبان الركام الثلجى الذى هالته على قلبها من زمان ، وتشهد تفجر ينابيع الحس والغبطة واللهفة فى هيكلها الذاوى .

***

وألهاها ذلك عن كل شىء حتى عن صاحبها الذى أيقظ عواطفها الخامدة ونبه فطرتها الراقدة ، فلما طال به الانتظار بعث اليها يسألها : هل من جواب ؟ فكان ردها أن سألته مزيدا من الانتظار ، والسهد ، والقلق ..

ثم رضيت آخر الأمر أن يتقدم الى أسرتها خاطبا ، فلم تسعه الدنيا لفرط فرحته وملأه احساس غامر برجولته ، وتضاءل شعوره باليتم والصغر ..

لكنه لم يكد يراها فى جلوة الحفل تفيض حيوية وغبطة ، حتى أنكرها ورأى فيها مخلوقة أخرى ، ناضرة متألقة ، غير تلك التى فتنته منذ عام بمظاهر ضعفها ورقتها وأساها وغربتها ..

وخرج بعد انتهاء الحفلة ، فما بلغ باب البيت حتى نزع خاتم الخطبة من اصبعه دون تردد أو تفكير ، وأحس اذ ذاك كأنه يستقبل حياة جديدة ، لا يشوبها ظل من ماضيه الشقى اليتيم .

ولم يفكر قط فيما دفع من مال وما قدم من هدايا للعروس ، ولا عناه أن يسترد شيئا من هذا الذى دفع ، بل احتسبه ثمنها معقولا للتجربة التى أنضجت شخصيته ، ونفست عن المكبوت عن شجنه ، وردته رجلا رشيدا بالغا ، متحررا من أغلال شعوره باليتم والصغر .

وهكذا مضى غير ملتفت الى ما فات ، وترك العروس من ورائه تناديه . فيرتد اليها صدى صوتها شريدا ممزقا .

ولما رابتها غيبته التى طالت ، خرجت تضرب فى الأرض على أثره باحثة عنه ، وانطلقت تسائل عنه كل غاد ورائح ، فلقيت من أخبروها أنه هاجر معجلا الى أمريكا ، ثم أمسكوا — رحمة بها وشفقة عليها — فلم يقولوا انه تزوج سائحة من بنات العم سام ، وصحبها مهاجرا الى الدنيا الجديدة ، ولم ينبئوها أنه نفض يديه منها أبد الدهر ، بل تركوها هائمة وراء السراب ، تنتظر أوبة الغائب دون أن تجرؤ على الظن بأنه لن يعود ..

وما تزال حتى الساعة تتشاغل بالانتظار ، وكلما ترامى الى سمعها بعض ما يتحدث به قومها عن ضلال مسراها وكذب أملها ، وضعت أصابعها فى أذنيها وأبت فى اصرار عنيد أن تفجع فى وهمها الكاذب ، أو تستبدل بسعيها المنهك وراء السراب الخادع ، راحة اليأس التى هى عندها شر من ضجعة القبر !

مع السر مح !



« وهبت الريح عاصفة دون أن تسبقها نذر ، وطافت بحديقة الأمل فعصفت بزرعهـا الناضر ، وتركتها قاعا صفصفا ، كأن لم تغن بالأمس »

سمعت بقصتها فى حديث عابر من احدى الصديقات فلم ألق اليها بالا ، واكتفيت بالتعليق عليها بكلمة رثاء من تلك الكلمات الرخيصة التى لا تكلفنا أكثر من تحريك الشفتين واللسان !

ذلك أنها لم تكن الوحيدة التى فجعت فى أخ لها شاب ، كانت تزهو به وتدخره للأيام وترجوه للغد المحجب وراء أستار الغيب ، ولا انفردت دون خلق الله بخيبة أمل ظل حينا يؤنس عالمها الموحش ويضىء لياليها الحوالك ، ثم خبا فجأة وانطفأ عندما هبت الريح ، وانما هى ضريبة الحياة يؤديها الأحياء جميعا بغير استثناء على هذا الوجه أو ذاك ، وأى بشر أعفته دنيـــاه من مرض أو ثكل أو فشل أو يأس أو جنون ؟!!

قصة مألوفة ، تمثل كل آن على مسرح الدنيا وان اختلفت صور ممثليها وتغايرت منهم الأسماء وتباينت الظروف . ومأساة مكررة يشترك فيها بنو آدم منذ كانت الدنيا الى يوم يطوى الله الأرض ، وانما نستنيم حينا الى خداع الحس ، أو نغفو حالمين على غفـلة من الليالى واملاء من القـدر ، حتى يحـين دورنا أو دور واحد من أحبابنا ، فيهزنا الهلع ويخلع قلوبنا الرعب ، ويخيل الينا أن القدر فارغ لنا والكون مؤتمر بنا ، والزمن ملح فى عداوتنا ، فلا مصاب الا مصابنا .

وننسى أن عجلة الزمن تدور فتطحن الأحياء كلهم ، وأن الكون لا يؤثرنا باهتمام خاص ، وان أحداث القدر قسمة بين البشر ، لا يفلت منها مخلوق ولو كان من الصفوة المرسلين .

* * *

مات أبوها بعد أن استنفد الميسر كل قرش يملكه ، وتركها وأخاها الصغير ، يواجهان الحياة يتيمين فقيرين ، فانتقلت بهما أمهما الى دار أبيها ، حيث عاشا فى كنفه حتى زاره زائر لا يرد ، فمضى به الى حيث يمضى كل حى .

وحملت الأم ولديها وقد تضاعف يتمهما ، وعادت تضرب بهما من جديد فى تيه الحياة الى أن أدركتهم رحمة الله فاذا بالفتاة تتخرج فى مدرسة المعلمات الأولية ، وتفوز بوظيفة معلمة فى المدرسة الأميرية بالحى . وعاد شقيقها الى مدرسته الثانوية ، وكان قد انقطع عنها منذ مات جده .

وأملى الدهر لهذه الأسرة المسكينة ما شــاء ، ونامت عنها الليالى ، وأرخى لها القدر فى حبال الأمل ، فامتدت الى أبعــد مدى .. نجح الفتى فى دراسته الثانوية بمجموع من الدرجات يؤهله لدخول كلية الهندسة ، وأرادت أمه أن يكتفى بهذا القدر من التعليم كى يضع حدا لما تحتمل أخته ، ويدعها تحاول أن تلحق بقطار الحياة وقد كاد يفوتها .

كذلك تردد الفتى فى دخــول الكلية ، اشــفاقا من أن تعجز الظروف المادية للأسرة ، عن ظهوره بالمظهر اللائق بطلاب الهندسة.. على أن الكلمة الأخيرة كانت للفتاة اذ هى التى ستحمل العبء ، وقد أرضاها — بل أسعدها — أن تدفع أى ثمن ليكون لها أخ « مهندس » والله وحده يعلم أى ثمن دفعته .

وبدا الشباب فى زيه الأنيق وغده المرموق ، زينة الحى كله ،

وأخذ سمت المهندسين فى حركاته واشاراته وأحاديثه ، وظل يضخم فى أعين أمه وشقيقته حتى ما عادت تسعه دنياهما ، وكان يحلو للفتاة أن تعرض أدواته الهندسية على أعين الناس ، فتضعها قرب النافذة فى الدور الأرضى الذى يسكنونه ، بحيث يراها كل غاد ورائح ، فيعلم — ان كان يجهل أو يستريب — أن ها هنا يسكن « مهندس » باعتبار ما سيكون !

وما أكثر ما سمعت أذن الدنيا قول القائلة منهما : المهندس راح والمهندس جاء ، حتى ملت ما تسمع ، ثم وقعت الواقعة بغير مقـدمات !

وهبت الريح عاصـفة دون أن تسـبقها نذر ، فأطارت لب (المهندس) وذهبت برشده ، وطافت بحديقة الأمـل فعصفت بزرعها الناضر وتركتها حصيدا كأن لم تغن بالأمس !

كيف حدث ذلك ؟

لم يدر أحد على وجه اليقين ، وان كثرت فى أمر الفتى وأخته الأقاويل ، وتعددت الظنون .

* * *

وكنت أعرف الأخت من بعد ، اذ قدمها لى بعض معارفها كى أرشحها مدرسة خاصة لسيدة صديقة من قطر شرقى بعيد ، أحبت أن تتعلم اللغة العربية لتملأ مكانها كزوجة لكبير من رجال السلك السياسى الخبراء بشئون الشرق الأوسط .

واتصل ما بينى وبين الفتاة عن هذا الطريق ، وكنت أكبر

كفاحها وايثارها ، وأقدر فداحة تضحيتها وثقل العبء على كاهلها ، وأصغى فى تأثر الى شكواها من انكار الناس عليها طموحها الى أن تكون أخت مهندس .

فلما بلغنى من صديقتى الشرقية نبأ اللوثة التى أصابت عقل الفتى بغتة ، لم أستكثر هذا على الزمن ، وان رثيت للفتاة فى خيبة أملها وضلال مسعاها وفجيعتها فيمن رجته لمستقبل الأيام .

على أنى ما لبثت أن شغلت عن المأساة بجديد سواها ، مما تتمخض عنه الأيام والليالى . وقلت وأنا أضع مصابها على « الكوم الكبير » : سوف يروضها الزمن على الصبر والتسليم فيما لا حيلة لها فيه !

ثم نفضت بالى من أمرها فما عدت أذكرها الا لماما فى مناسبات عابرة متباعدة ، حتى لمحتها مصادفة وأنا فى طريقى الى هليوبوليس ، وكانت آتية من صحراء العباسية فى خطوات بطيئة ، وقد بدت ملامحها جامدة جمودا أخرس ، فجزعت لهذا الجمود ، وأشفقت عليها منه ..

وعرضت عليها أن أصحبها الى منزلها النائى فى أطراف مصر القديمة ، كيما أجنبها مشاق المواصلات فى قيظ الظهيرة ، فلم تمانع ولم تتردد ، بل أخذت مكانها الى جانبى صامتة لا يفارقها جمودها .

سألت وأنا أرجو أن أهيج مشاعرها : كيف حال أخيك اليوم؟

فهزت رأسها فى تعب يائس ، ولم تجب ..

وعدت أسأل : أما من بارقة أمل فى أن يبرأ من علته ويسترد صحته النفسية ؟

أجابت فى ايجاز : لا أدرى ..

ثم أمسكت لا تزيد ، فلم أملك الا أن أجاريها فى صمتها .

وكان حر الظهيرة لافحا يتلهب ، والسماء تقـذف الأرض بشـواظ من نار يذيب اللحم ويصـهر العظم ، وأظلت الكون سحابة من لهب شاحب أربد ، فكأنما جثمت على صدور الناس فما يستطيعون تنفسا .

واذ بلغت بصاحبتى مسكنها ، هممت بأن أتركها لدى الباب وآوى الى ظل شجرة قريبة يعصمنى من ذاك الجـو الكئيب القائظ ، لكنى عدت فكرهت أن أفر من الفتاة المسكينة ، وهى توشك أن تتداعى من يأس واعياء .

وجلست الى جانبها فى بهو المسكن ، يخيم علينا صمت ثقيل كصمت القبور ، حتى كانت أمها هى التى أقبلت ، تسألها فى لهفة كيف رأت أخاها ، وماذا قال ، وعم يتحدث ، وبم يشتغل ، والام يصـير ؟

وتلاحقت أسئلتها ، غير منتظرة جـوابا ، اللهم الا الاشارة الخرساء ، أو الكلمة المبتورة أو النظرة الساهمة .

قلت للفتاة : هلا رحمت أمك فحدثتها عن ابنهـا بما يقنع أو يريح ؟

فما راعنى الا أن قالت الأم : بل انهـا هى التى يجب أن أرحمها فلا أثقل عليها بسؤال ، لكنه قلب الأم يا ابنتى فمعذرة .

وتهالكت على أقرب مقعد أشبه بحطام منهار .

وألح على خاطرى سؤال لم أملك لسانى من النطق به :

— كيف بدأ هذا كله ؟

أجابت الأم : فجأة يا ابنتى وعلى غير انتظار ..

قلت : أما من سبب ظاهر قذف بهذا المسكين وراء دنيا العقلاء؟

فكـان جوابها : « كلمة عابرة نطق بها عامل فقـير من أبناء جيرتنا ، ساقه القدر ليركب الترام وفيه ولدى وابنتى ، فلما جاء موزع التذاكر أصر العامل الفقير على أن يكون هو الذى يدفع أجر التذاكر الثلاث .. وكبر على « المهندس » أن يدين بشىء لهذا الفقير الذى لا يكاد يجد قوت يومه ، ولكن الرجل توسل الى ولدى ألا يجرح عزة رجولته أمام الست أخته ، فهو على فقره رجـل !

وعاد ابنى الى البيت يهذى .. وأبى أن يمس طعاما لأنه من كسب أخته !

وأقام فى غرفته لا يبرحها يوما وبعض يوم ، ثم خـرج الى الطريق عاريا ، يعلن فى الملأ الذى تجمع من حوله ، انه لن يلبس بعد اليوم الا من كسب يده ، فهو مهندس يغنيه مركزه عن العيش عالة على كاهل امرأة !

ثم كان من أمره ما تعرفين .. لم يأت عليه مساء يومه ذاك

حتى كان نزيلا فى مستشفى الأمراض العقلية .

وصبرت على بلواى ، فما لنا فى قضاء الله حيلة ، ولا لنا منه مفر .. سبحانه ، قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملام !

كل دعائى اليوم ، أن يسبغ رحمته على هذه المسكينة ، فمنذ جن أخوها وهى على ما ترين ! »

فأمنت على دعائها من كل قلبى ، وانصرفت مودعة والألم يفرى كبدى .

* * *

ومنذ أيام لقيت صديقتى الشرقية ، فكان أول همى أن أسألها عما اذا كان لديها علم بما صار اليه حال الفتاة التعسة ؟

فربتت على يدى وهى تجيب : .. هونى عليك ، فقد وجدت سبيلا للعزاء والنسيان .

هتفت فى عجب : هل تزوجت ؟

أجابت : كلا ، فما عادت تصلح للزواج بعد أن امتص الكفاح الضائع الذى ذهبت به الريح ، كل قطرة من حيويتها ، وانما ألقى القدر فى طريقها سيدة كهلة من محترفات الوعظ وبائعات الصبر وموزعات العزاء ، فكأنما لمستها لمسة ساحرة ، جعلتها تعيش فى غيبوبة عن دنيانا ، لا تحس متاعبها ولا تشعر بهمومها ولا يعنيها من أمرها كثير أو قليل ، وانما هى رانية أبدا الى عالم آخر ، لا هم فيه ولا شجن ، بل الأمن والراحة والسلام ! .

عشــــواء



« .. وكف القدر عن تتبعها وترصد خطواتها ، منذ
تعثرت فى الطريق ضالة عشواء .. »

لم تكن تشكو مرضا فى عينيها ، ولا عرفت يوما مستشفيات الرمد أو أطباء العيون ، لكنها أمست ذات ليلة ، فاذا الدنيا تتغير أمامهـا !

أنكرت عيناها كل ما كانت تعرف من هذه الدنيا ، واستغربت كل من كانت تألف ، وأصبحت وكل شىء غريب عليها ، كأن لا عهد لها به من قبل .

ولم تنقلب الدنيا ولم يتغير فيها شىء ، وانما الفتاة نفسها هى التى تغيرت ، واستبدلت بعينيها منظارا جديدا تنظر به الى الحياة!

* * *

كانت تعيش مع أسرتها فى مسكن متواضع على سطح منزل « بحى المتولى » . ولم تكن الأسرة ذات عدد : أب شيخ لم تبق له السنون العجاف من القوة الا ما يحمله الى المقابر فى أيام الجمع والمواسم ليتلو القرآن الكريم على أجداث الراقدين ، ثم يعود الى داره محملا بنصيبه من فطائر الرحمة وفاكهتها ، وعدد من القروش يقل أو يكثر تبعا لمنزلة الميت من نفوس الأحياء ، أو تبعا لما يتعلقون به من تظاهر بالسخاء على روح الفقيد !

وأم كهلة ، تركت لها الأيام بقية من حيوية الشباب المدبر ، وأبقت لها على طائفة من ذكريات نشأتها الأولى فى بيت طيب من بيوت المتولى ، وحفظت لأذنيها أصداء من صيت أبيها شيخ قراء الحى وزين سرادقاته ومقارئه ، والصوت المجلجل فى ليـالى رمضان الساهرات !

وأخ تافه مدلل ، نصف متشرد ، نصف عاطل ، يتنقـل من (دكان السمكرى) الى (حانوت الجزار) الى (مصنع الحلوجى) لا يكاد يحسن صنعة أو يستقر فى مكان ، وقد تنازلت الدولة عن حقها فيه ، فأعفته من الجندية ليكون عونا لأبيه الشيخ ، فاذا به يسومه سوء العذاب ، ويفرض على أمه ضريبة يومية من النقود ، وليس يعنيه وراء الظفر بها أن تبيت الأسرة على الطوى ، أو يتعرض الشيخ لمهانة السؤال .

ثم هذه الفتاة .. دعاها خال لها ميسور الحال وأواها فى بيته حتى نالت كفاءة التعليم الأولى ، وعينت معلمة فى مدرسة للبنات بالدرب الأحمر .

ولم تخل حياتها فى عهدها ذاك من لمسة حب وطيف حبيب : كان هناك ابن خالها ، شاب رقيق الحس مرهف المزاج ، يشغل وظيفة كتابية فى الدرجة الثامنة باحدى الوزارات ، ولم يكن فى أول أمره يلتفت الى بنت عمته أو يراها — فى ظروفها التى يعرفها — فتاة أحلامه وموضع أمانيه . غير أنها لم تكد تفد لتعيش بينهم حتى بدأت تحيطه برعاية سابغة ، وتجذبه اليها بشباك غير منظورة. ولم يشق عليها الأمر ولا طال بها الانتظار ، فقد كانت حياته خالية من مثل تلك الظلال الرقيقة النـاعمة ، وذلك الطيف الأنثوى اللطيف ، وهكذا اندفع اليها — بعد وجمـة مترددة لم يطل مداها — بكل عواطفه الحبيسة ومشاعره المرهفة وخياله الجامح، وأحست هى ما يشبه الانتصار ، فقد كان أبواها يرشحانها لفتى

رقيع عاطل ، جمع له أبوه — الجزار — ثروة طيبة ، ولم تكن أمانى الفتاة لتصل الى « ابن الخال » الأفندى الموظف الذى ترنو اليه ذوات الحسب والنسب والثراء من بنات الحى .

وحين آن للفتاة أن تغادر بيت خالها بعد وفاته ، وترجع الى مكانها الأول من مسكن أبويها ، تركت فتاها يهيم بها حبا ، ويجد فى هواها مثل الجنون ..

***

ولم تكن العودة هينة عليها : فمنذ التحقت بمدرسة المعلمات وهى تشعر بالفرق الواضح بينها وبين أبويها وأخيها ، وظل هذا الفارق يزداد مع الأيام عمقا واتساعا حتى كاد يمسى هوة تفصلها عن هؤلاء الذين تربطها بهم روابط مثل القيود والأصفاد ، لفرط قوتها واحتكامها وتعذر الفكاك منها ، وكانت تجد فى بيت خالها المخرج والمتنفس : المخرج من تلك الورطة التى أحكمت الأقدار نسجها لها ، والمتنفس من ذلك الوسط الحقير الذى لا يليق بعصرية متعلمة ، موظفة حكومة مثلها . فلما أغلق بيت الخال ، أصبحت حياة السطح بالنسبة اليها شبيهة بسجن ، لكنها احتملت على مضض ، وتكلفت البر بمن ربياها صغيرة . واستطاعت بلباقتها وحسن مظهرها أن تزهو أمام الزميلات بأبيها العالم المقرىء ، وسكنها فى ذلك المنزل الكبير الذى سجلت عنوانها عليه فى دفتر المدرسة دون أن تحتاج لذكر (السطح) .

وبنت بالغرور والتعالى والجفوة ، حواجز وسدودا بينها وبين الزميلات ، حتى لا يفكرن فى زيارتها والوقوف على حقيقة حالها .

وهكذا سارت أمورها : مسواة فى الظاهر ، لكنها كانت فى الحقيقة ستارا لحياة نفسية مضطربة ، قلقة ، معقدة !

ولم يك هذا الستار سوى الزبد الذى يعلو سطح المرجل : تراه العين ساكنا هادئا ، ومن تحته الاحتدام والغليان !

* * *

أعلنت مصر الحرب على الأمية الجهلاء ، وأقامت فى كل قرية بالريف ، وكل حى بالمدينة ، مدرسة تنشر النور وتمحو الظلام ..

وسرت روح الديموقراطية فى التعليم ، ففتحت أبواب المدارس الابتدائية لأبناء الفقراء ، وكانت من قبل وقفا على أبناء الموسرين.

وتحول عدد من المدارس الأولية بالمدن ، الى مدارس ابتدائية، لمواجهة الضغط . واذ لم تكف معاهد التربية لتزويد هذه المدارس بحاجتها من المدرسات ، استعيرت لها بعض معلمات المدارس الأولية ، ومن هؤلاء كانت « عطيات » وكأنما لذ للقدر أن يزيد الهوة بينها وبين أهلها عمقا على عمق ، ثم وقف ليتفرج !

وقف يتفرج عليها وهى تشترك فى الحركات النسوية الجديدة ويصغى اليها خطيبة فى أحد المحافل العامة ، تصف الظلم الذى تستهدف له ذوات العقول المثقفة والشخصيات المستنيرة .

وارتسمت على فمه ابتسامة !

ثم تبعها بعد الحفل وهى تتسلل فى ستر الظلام ، لتمضى الى حى المتولى ، تتلفت وراءها فى كل خطوة ، لتستيقن من أن أحدا لا يراها .

وصعد فى أثرها الى السطح ، ثم راق له أن يغزو مرقدها المتواضع بأحلام عجيبة عن المستقبل اللامع ..

ورجع فاختار له مرصدا أمام فندق فخم بالعاصمة ، ولبث هناك ينتظر ويترقب ..

* * *

نحن الآن فى أصيل يوم أحد من أيام الربيع الزهراء ، وقد بدا أثر اللمسة السحرية فى كل الكائنات فسرت فى أعطافها فرحة، وتهللت فى نشوة عذبة تغنى للربيع وتهتف للحياة .

وعلى ضفة النيل أمام الجزيرة الفيحاء ، تبدى الفندق الكبير فى زينته البديعة وأضوائه المتألقة يخف به صف من راقصات الأشجار ، ويجرى النهر من تحته خافق الأمواه ، دافق الحيوية ، متوثب الأمواج .

ولاحت من بعيد فتاة أنيقة ، قلقة الملامح بادية الحيرة والارتباك ، فعرف فيها القدر تلك التى تركها منذ ساعة على سطح بيت فقير ، تساوم أخاها على ألا يعترض طريقها الى (الرفعة والمجد) ، أو يبدو بسحنته الغبراء فى الأوساط العالية التى تختلط بها . وله — لقاء ذلك — اتاوة مفروضة ، تؤديها له أول كل شهر ..

كانت مدعوة لشهود احدى الحفلات الكبرى لجمعية نسوية تشترك فى عضويتها ، وقد أمضت أياما وليالى تستعد لهذا الحفل المشهود وتتردد على محال الأزياء ومصانع التجميل ، ثم أقامت على جمر اللهفة تنتظر الساعة الموعودة !

وأخذت طريقها الى الفندق وثبا ، لكنها لم تكد تقترب منه حتى ألجمها الارتباك ، فوقفت على بعد خطوات منه لا تستطيع حـراكا ..

ومر بها فى موقفها مدعو كريم من وجهاء الشباب الذين تعرفت بهم حديثا ، فالتقطها فى سيارته الفخمة وأدخلها البهو الكبير شبه حالمة !

وهناك واجهت الأضواء لأول مرة فزاغت عينـاها وعشى بصرها !

أهى حقا فى كامل يقظتها الواعية ؟

أم تلك خدعة وهم ، وتضليل رؤيا ؟

أتكون هذه النجمة المتألقة فى حفل الفندق ، هى نفس الفتاة التى عرفتها فى حى المتولى ؟ أم تلك مسة ساحرة من جناح جنى ، حملها الى وادى الأحلام العجيب ، ولن يلبث أن يعود بها الى واقعها البائس المنكود ؟

لم تكن تدرى ...

لقد جلست تتلقى فى ذهول حالم ، فروض الاعجاب من شبان ذلك المجتمع الراقى ، حتى اذا أرهقتها الدهشة وكادت تترنح من فرط النشوة والاعياء ، ألفت الى جانبها تلك اليد الرقيقة التى التقطتها قريبا من الفندق ، وأعفاها وجود هذا الصديق من فضول المتطفلين الذين ما كانوا — لولا وجـوده معها — يكفون عن مطاردتها بأسئلتهم الملحة : من هى ؟ ومن أى بيت ؟

واتنهى الحفل وما زايلها ذهولها ، ولا رفع عن عينيها الغطاء ! وانفض الجمع وما انفك عنها ذلك السـحر الرهيب الذى أزاغ بصرها وأضاع رشدها !

فلما همت بالخروج من البهو ، تعثرت خطاها وحار طريقها ..

ولم تعرف : أهذا الذى بها من أثر النشوة الثملة بما ذاقت ورأت ، أم هو الاشفاق والحيرة مما ينتظرها هناك من مأوى حقير فى الحى الفقير ؟

وفى غشية مختلطة من هذا الارتباك الثمل ، أسلمت يدها الى الصاحب الكريم الذى لم يغب عنه ما تلاقى ، فوضع نفسه فى خدمتها ، وانطلق بها الى سيارته مزهوا متهللا ..

وأصغت — شبه مسحرة — الى ترتيله العذب ، وهو يمجد الله فى تلك الآية الرائعة التى أبدعها : أين كانت من قبل ؟ كيف لم تسطع ببهائها فى سـماء العاصمة ليشهد النـاس فيها بديع صنع الله !؟

رددت فى سرها : أين كنت ؟ فى ظلال غبراء تحت أجنحة غربان القبور ؟ ! .

ومضى يسأل ان كانت تسمح لمثله بشرف توصيلها لبيتها ؟

وأمسكت ضحكة مخبولة ملتاثة : أى بيت ؟ عشة الفراخ فوق السطح ؟ كلا ! لن تسمح لمثله بهذا الشرف الرفيع .. وليفهم انها من بيت علم ودين ، أبوها شيخ كبير ، ولها أخ حاد الخلق عنيف الحرص على التقاليد ، وما هو بمعفيها من القتل ان رآها مع أجنبى غريب !

فحنى الوجيه رأسه ، وبدت فى عينيه نظرة مبهمة ، هى خليط من الاحترام والثقة والتسليم !

وتركها فى حى الحلمية على موعد .. وتريثت الفتاة فى موقفها حتى اذا ابتلعت ظلمات الليل سيارته اللامعة ، اتجهت فى بطء الى « المتولى » وقلبها مثقل بهمه وشجنه .

يالله ! أين كانت ؟ والى أين تمضى ؟ وخيل اليها وهى تشق أحشاء الظلام أنها ترتطم فى جدران هاوية سحيقة ، أو تخوض مستنقعا من الوحل . وأحست كأنما هذه القطعة من الليل ، سور باطنه فيه الضوء والعزة والنعمة ، وظاهره من قبله الظلام والضعة والشـــقاء !

وهناك على باب البيت وقفت تبكى ! انها لاتريد أن تصعد الى المأوى الوضيع ، فما عاد يجوز لها أن ترضى به ، وقد سطعت الليلة فى سماء العاصمة .

— وبدا لها أن تهرب ..

الى أين ؟ لم يكن يعنيها أين ؟ وانما الذى يعنيها هو الفرار من حياة الدون ، مع أخ متسكع ، وأب يقرأ على القبور ، وخطيب فى الدرجة الثامنة الكتابية . لكنها مع ذلك قاومت ، وبدأت تصعد السلم وأنفاسها تكاد تنقطع من فرط الغيظ والحسرة والكمد ، حتى اذا أدركت السطح تخبطت تائهة عشواء ..

أنكرت المكان والسكان ..

وامتلأ أنفها برائحة نتنة ، كأنما فتح أمامها قبر أخذ ينفث فى الهواء ريح الجثث !

وعبثا حاولت أن تنجو من الاختناق الكريه !

أفرغت فى يديها ، وعلى وجهها زجاجة من عطر «الشبراويشى»، وبقيت الرائحة الخبيثة بعد ذلك تملأ أنفها ، وتنفذ الى رئتيها ، وتدير رأسها ..

ولما فتح لها أبوها الباب لم تعرفه .

لقد بدا لها كشبح من سكان القبور ..

* * *

وفتح الصبح عينيه فألفى مرقدها فوق السطح خاليا .. لقد ثرت الى « الغريب الكريم » تسأله عما تفعل ، وأهلوها يرغمونها على الزواج من ابن خال لها ، هزيل تافه تكرهه وتحتقره .

وهب الغريب للنجدة .

فتح لها باب بيته ، وأقام على خدمتها عجوزا ايطالية أكلت الحرب بنيها وخربت ديارها .

قالت عطيات : والمدرسة ؟

فلم يمض نصف نهار ، حتى كانت تشغل وظيفة رابحة ، فى الشركة التى يدير قسما منها .

وكف القدر عن تتبعها وترصد خطواتها . لقد قضى فى أمرها وعرف مصيرها .. ولفظت الحياة الكريمة فتاة ضالة ، ضمها الشيطان الى حزبه .

* * *

ثم بدا للقدر أن يرجع فيلقى نظرة على هؤلاء الذين تركهم فى الحى الفقير . ومر فى طريقه ببيت الخال ، فاذا فتى ذاهب

الرشد مختلط العقل ، يرسم خطوطا بلهاء ، ويناجى فيها صورة الحبيبة التى مضت ..

وأسرع القدر الى غرفة السطح ، فشهد مصير الضحايا الباقين :

أم ثاكلة مهدودة الحيل ، تطفىء بالدمع نارا هيهات أن تنطفىء ..

وأخ سكير ، عاكف على الكأس ، يغسل بالخمر عاره .

أما الأب فقد رحمته السماء ، ووهبته نعمة الموت ، وراحة القبر ..

وعزت الرحمة على الأحياء .

هدى ..



((ذلك مبلغهم من العلم ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ! .))

كان أصلا فاترا من آصال شهر ابريل ، بدا الكون فيه كأنما يناضل لكى يتخلص من آثار القيظ المرهق الذى ألهبه فى وقت الظهيرة بسياط من نار .

وخرجت « هدى » من بيتها مشغولة البال : كانت على موعد فى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم لتشهد حفلا كبيرا تتسلم فيه جائزة التفوق فى احدى المسابقات العامة ، وقد أمضت نهارها تستعد لهذا الموقف ، وتتمثل مكانها فى الحفل ، وتدبر فى رأسها الكلمات التى تقولها لو دعيت الى الحديث فى هـذه المناسبة السعيدة .

واستغرقها الاهتمام باللحظة المنتظرة ، فلم تكد تشعر بوطأة الحر الذى يزهق الأنفاس ، ولم يثقل عليها أن تخرج مبكرة قبل الموعد المحدد للحفل بأكثر من ساعة ، رغبة منها فى أن تسير الى النادى متمهلة الخطو ، مستريحة الأنفاس ، بادية الاتزان والوقار.

وفى الطريق راحت تفكر : ماذا وراء ظفرها بالجائزة ؟ لكنها قاومت ميلها الى التفكير فى شىء كهذا ، اذ تذكرت بغتة ، قصة القروية الحمقاء التى خرجت الى سوق القرية بسلة من البيض ، فأخذت تحصى كسبها المنتظر ، وتبنى عليه آمالا طوالا عراضا ، بدأت بشراء نعجة تلد القطيع ، ثم ما زالت تتضخم مع كل خطوة، حتى أوشكت أن تصل الى شراء مزرعة ، فى اللحظة التى عثرت فيها قدماها ، فوقعت السلة وانحطم البيض !

و « هدى » ليست حمقاء ، وان تكن ريفية النشأة كصاحبتها.

لقد تعلمت واستنارت ، وعرفت كيف تأخذ من الحياة دروسا وتستفيد من القصص والحوادث عبرة . وهذه قصة البيض المحطوم التى تعلمتها فى طفولتها ، تحضرها فى الظرف المناسب واللحظة الملائمة ، فتعصمها من مثل المصير الذى انتهت اليه قروية أخرى من قبل ، وتأبى عليها أن تبعد فى الأمانى ، وتبنى قصورا فى الهواء .

بحسبها أن تعيش للحظتها ، وأن تنعم اليوم بالجائزة التى طالما رنت اليها ، أما مابعد ذلك ، فلتدعه لعلام الغيوب .

ولكن ما بال قلبها يخفق الآن لذكرى طفولتها ؟ انها تدرك تماما أن الذكريات تداعت حين خطرت لها قصة الفلاحة والبيض ، ولكنها لا تفهم مبعث ذلك الشجو الطارىء الذى غزا قلبها وهى تذكر مغانى صباها بعد اذ تراخى العهد بها وتقطعت دونها الأسباب.

أترى ازدهاها أن تقارن بين أمسها المغمور ويومها اللامع ؟ أم تراها تود لو جاءت صواحب الحداثة ليشهدنها فى جلوة الأضواء ؟

ولكن أين هن منها الآن ؟ لشد ما باعدت الدنيا بينها وبينهن ! هذه هى فى قلب العاصمة ، تتهيأ لتتوج بالمجد وتتلقى التهنئة من أعلام الجيل ، وهن هناك .. أمام مواقدهن فى الدور المتواضعة ، يهيئن طعام العشاء لرجالهن العائدين من الحقول ، وينادين على أطفالهن المبعثرين فى ملاعب القرية ، ويرقبن مبيت الدجاج والماشية ، ويحلمن باللحظة التى يسلمن فيها أجسادهن المكدودة الى الفراش !

ولكن ما هذا المضى مع ذكريات الأمس الخالى ؟ أيعصمها رشدها من الذهاب مع أمانى الغد ، ثم يعجزه أن ينزعها من ذكرى عهد ولّى وراح ؟

ولاح لها بناء النادى الفخم على بعد خطوات ، فتوقفت برهة ريثما تستجمع خواطرها وتركزها فى حاضرها الماثل ، ثم خطت الى « ميدان الأوبرا » حيث اشتد الزحام على جوانبه فى انتظار اشارة المرور ، فطاب لها أن تنقل بصرها فى الناس من حولها ، وقد خيل اليها أنهم جميعا يسعون الى النادى ليشهدوا حفل منحها الجائزة ، وهم لا يدرون انها هى هذه التى تسير بينهم الآن !

وابتسمت وهى تتصور طريقها فى العودة بعد أن ينفض الحفل ، وقد تعلقت بها أنظار الجمع المحتشد ، ورددت ألسنتهم فى همس واعجاب : هذه هى نجمة المساء !

وأفلحت هذه الخاطرة فى أن تستردها من بقايا قصة الفلاحة والبيض ، فاستأنفت مسيرها تجاه النادى ، حتى اذا لم يبق بينها وبينه غير أمتار ، تطلعت الى احدى المرايا بجانبها ، كى تطمئن الى مظهرها وزيها وسمتها قبل أن تسلط عليها الأضواء !

غير أنها لم تكد تفعل ، حتى استدارت فجأة ، وراحت تحدق فى شخصين — رجل وامرأة — كانا يعبران الميدان فى الاتجاه المضاد ، دون أن يشعرا بوجودها ، وقد أمسك الرجل بيد امرأته فى رفق ليحميها من مخاطر الطريق .

وغابا عن عينيها فى أحد الشوارع الجانبية ، فتبعهما خيالها ، وهى حيث هى ، لا تحير حراكا .

ووقع بصرها عفوا على ساعة الميدان ، فذكرت موعدها القريب ، وبدت عليها الحيرة لحظة ، ثم عادت فجمعت نفسها وسارت بخطوات آلية نحو المسرح ، وهى تحس أن شيئا فيها قد انطفأ ، وهيهات أن تنيره الأضواء الساطعة التى تنتظرها على قيد ذراع !

* * *

وانتهى الحفل كما بدأ ..

ألقيت كلمات ، والتقطت صور ، ودوى تصفيق ، وهى تشعر كأن واحدة سواها هى التى تؤدى الدور ، وتتلقى التهنئة ، وتتناول الجائزة ..

أما هى ، هى ذاتها ، فقد كانت غائبة عن المكان والزمان ، وكأن يدا غير منظورة قد انتزعتها من الحفل ، وشدتها بعيدا بعيدا ، فتبعتها مأخوذة مسحرة ، لا تملك من الأمر شيئا .

ولم تخف قبضة اليد عليها وهى تثوب الى منزلها فى ذلك المساء الواجم ، فتلقى بالجائزة جانبا ، وقد فقدت كل اهتمام بها ، وغابت عن جوها الذى عاشت فيه أياما وليالى ، لتسلم نفسها فى غير مقاومة ، الى دنياها الأولى التى انسلخت منها منذ جاءت المدينة ، الى أن ردها اليها ذلك المشهد الذى استوقفها عندما عبرت الميدان الكبير ..

وعجبت للقدر ! اختار اللحظة التى خيل اليها فيها أنها بلغت ذروة سعادتها ، ليضع فى طريقها هذا المشهد ، فكأنما ألقى فى

أعماقها بذور الشك والحيرة ، وصب فى كأسها قطرات من الأسى والشجن !

أكانت حقا سعيدة ؟

انها لتذكر يوم خرجت من قريتها سعيا وراء شهادة دراسية لم تظفر بها واحـدة قبلها من بنات الاقليم كله ، ونسيت نفسها فى غمرة الزحام وضجيج السباق ، حتى اذا نالت الشهادة المرموقة، جن طموحها ، فمزقت فى شجاعة يخالطها شىء من الحنان والشجو، كل الروابط التى تشدها الى مهد طفولتها وملعب حداثتها .

ولوت رأسها فى عزم وتصميم ، حتى لا تلتفت الى وراء ، حيث ودعت رفيق صباها الغرير ، وفتى أحلامها الغضة ، وكان كل ما زودته به فى لحظة الوداع ، أن اقترحت عليه أن يتزوج بنت عمها ، وينسى تلك التى لم تعد تصلح له ولا يصلح لها !

ووضعت أصابعها فى أذنيها ، كيلا يصـل الى مسمعها نداؤه الشجى ، يدعوها الى دنيـاها الحلوة ، ويحـذرها من الغربة والضياع ...

* * *

وانتصرت ارادتها ، وبدا لها أنها بعثت مخلوقة جـديدة ، لا تمت بصلة الى تلك الأخرى التى عرفتها فى القرية ، فلم تتردد فى الزواج من أحد شبان المجتمع العصرى الذى اندمجت فيه .

وعاشا زميلين ، لكل منهما مشاغله الخاصة وشواغله التى تعنيه وحده ، ولكل منهما طريقه وهدفه ومطامعه ، لا يكاد أحدهما

يلتقى بصاحبه الا ساعة يأويان الى منزلهما المشترك ، أو يجمعهما حفل يدعيان اليه معا .

فهل كانت سعيدة ؟

سؤال لم يخطر لها على بال ، منذ اختارت أن تنـدمج فى المجتمع الجديد .

وفيم السؤال وهى تحقق وجودها ، وتنعم باستقلالها ، وتبنى مجدها ، وتمارس حياتها المزدوجة على النحـو الذى تمارسه زميلاتها المتحررات ، وقد أعفتها الأوضاع العصرية من أكثر قيود الزوجية التى عهدتها فى دنياها الأولى تثقل الخطـو ، وتزهق الطموح ، وتدمج كيان المرأة فى زوجها ، وتلغى وجودها مستقلا عن وجوده ؟!

فيم السؤال ، وهى التى أرادت ، وصممت ، ونالت ؟

ان المجتمع الذى تعيش فيه ، يؤكد أنها سعيدة ، ويراها نموذجا رائعا للزوجة العصرية الشاعرة بذاتها ، المحققة لوجودها ، المعتزة بشخصيتها ، المؤمنة بكرامتها ، الحريصة على استقلالها !

وقد اطمأنت هى الى هذا ، ووجدت فيه ما يرضى طموحها ويلائم زيها المستحدث ، فلم يعنها أن تبحث عن مفهـوم آخر للسعادة ، ولا وجدت من وقتها متسعا لتتفكر فى غير ما يشغلها من هموم كبار !

حتى لمحت عابر الميدان ..

وعرفت فيه الفتى الذى ملأ أمسها الغض الغرير ..

كما عرفت فى صاحبته ، بنت عمها التى نافستها حينا على قلب الفتى ، ثم انصرفت عنه يائسة ، الى أن تطوعت هى فأخلت لها الميدان ، وقدمته اليها هدية متواضعة ، فى زهد المستغنى ، وكبرياء المترفع .

وألقت بهما عامدة فى متاهة النسيان ، وكأنما كانت ترى فى اشتغالها بأمرهما ما يؤذى جلال شخصيتها الجديدة ، ويشعرها بضآلة حلمها الأول ، وتفاهة أملها القديم .

فواعجبا لها ! ما بالها تهتز اليوم لمرآهما وتمضى على أثرهما الى أمسها الدابر الذى زهدت فيه وكبرت عليه ؟

ما بالها تراع للمسة الحنان التى أحستها فى امساك الرجل بيد زوجته ، فلم يدعها حتى بلغت مأمنا ؟

***

واذ هى مستغرقة فى خواطرها ، تناهى اليها صوت الباب وهو يفتح ، فانتزعت نفسها من غيبوبة الحلم ، لتستقبل زوجها الذى جاء يلقى عليها تحية المساء ، وجلس يتحدث اليها فى ود عن قسوة الحر أثناء النهار ، وهى تقاوم شعورا طارئا بالضجر والضيق والملال .

وسرها أن يتركها سريعا الى غرفته الخاصة ، حيث كان عليه أن يراجع تقريرا أعده للشركة الهندسية التى يعمل فيها ، وعبثا أنكرت على نفسها هذا الشعور ، فقد بدا أن الأمر يجاوز طاقتها ويغلب ارادتها .

وألفت خواطرها تفلت منها لتعود فتحوم حول المشهد الذى

استوقفها فى مطالع المساء ، فحاولت — برغمها — أن تتمثل نفسها مكان بنت عمها ، تأوى الى ظل من حنان هذا الرجل الذى هجرته، وتسير الى جانبه شاعرة بما يسبغه عليها من حماية وهى تتعثر فى خطواتها عبر الميدان ، ثم تئوب معه الى القرية ، فتثير دهشة صواحبها بحديثها عما شاهدت فى رحلتها القصيرة من عجائب المدينة المسحورة .

* * *

وأوشك الليل أن ينقضى وما تزال هائمـــة فى مسراها وراء الأحلام ، حتى اذا بدت طلائع الفجر تبعثرت الرؤى وتشردت الأطياف ، وكان آخر ما طاف ببالها اذ ذاك ، أن ما ألمّ بها فى ليلتها لا يعـــدو أن يكون رؤيا عابرة ، لن تلبث أن تولى مدبرة حين يسطع ضوء النهار ، وتدعها لتستأنف نضالها الظافر ووجودها الواعى ، متحررة من هذا الضعف الطارىء ، ومنتصرة على ذلك الطيف العابر الذى ردها — لمدى ليلة — الى ماض لا سبيل الى رجعته ، وخايلها بأشواق تعلم « هدى » يقينا أن الحرمان منها ، هو وحده الذى جعل لها مذاقا فى وهمها !

ومدت « هدى » يدها الى خزانة أنيقة على مقربة منها ، فتناولت ثلاثة أقراص منومة ، ثم أوت الى مضجعها تريد أن تنام !

نهاية المطاف..



الى ذكرى الزميلة الراحلة الدكتورة سميرة موسى...

عندما ذاع فى بلدتنا الشاطئية الساحرة ، أن زميلتنا « خيرية » قد التحقت بكلية الطب ، تلقت صواحبها هذا النبأ فى كثير من الدهشة والارتياب ، اذ كان عهدهن بها رقيقة المزاج مرهفة الحس تنفر من رؤية الدماء ، وتجزع لمرأى دجاجة تذبح أو عصفور يصاد ، ولطالما تندرنا بها حين كانت تفاجئنا أحيانا بالامتناع عن أكل اللحم ، لمجرد أنها شهدت فى يومها قطيع ماشية يساق الى مذبح البلدة ، حتى لقد تنبأنا لها بأنها لن تلبث آخر الأمر أن تعتنق المذهب النباتى !

وهذه هى تكذب نبوءتنا وتتجه لدراسة الطب ، حيث يفرض عليها أن تعيش بين المشرحة ، وعنابر المرضى ، وقاعة العمليات ، على غير ما قدرنا وانتظرنا .

أفيمكن أن تكون الأعوام الثلاثة التى قضتها فى القاهرة ، قد غيرت منها وبدلت ، وأنشأتها خلقا جديدا ؟

أو يمكن أن تكون الحياة الصاخبة فى ضجيج العاصمة قد سلبتها رقة المشاعر وروحانية المزاج ، بما باعدت بينها وبين البيئة الشعرية الحالمة التى كانت لصباها مهدا ومرتعا ؟

هكذا راحت الزميلات يتساءلن ، ووجدن تسلية ممتعة فى تمثلها وهى تضع فى غرفتها عظاما آدمية من بقايا جثث الموتى ومخلفات القبور ، بدلا من « ديوان ابن الفارض » وزهر النرجس الذى كانت مولعة به أيما ولع !

ولم يغب عنا طيفها لحظة ، ونحن نتجول أيام العطلة ، فى

براري الشمال على شطوط بحيرة المنزلة ، أو نقضي أويقات الأصيل في زورقنا الرشيق وهو يتهادى بنا على صدر النيل ، ذلك أن « خيرية » كانت أشدنا انفعالا بمشاهد السحر ورؤى الجمال في هذه المنطقة الفاتنة ، وما زلنا نذكر موقفها المثير يوم ودعت الشاطئ قبل رحيلها الى القاهرة ، فأقامت أمسيتها الأخيرة هنالك، تطيف بالربوع الحبيبة ، ثم تقف على الشط رانية الى الشراع البيض ، والزوارق الحالمة ، والنخل الباسقات ، في خشوع عابد، وذهول مستغرق !

لكم أشفقنا عليها يومئذ من أن يتصدع كيانها الرقيق ويذوب، تحت وطأة الانفعال العنيف الذي كان يضنيها وهي تتزود للفراق الوشيك !

ألا ما أعجب تقلبات الدنيا وما أقوى سحر المدينة على السذج البسطاء من أبناء القرى والشطوط ! .. لقد كنا نرشح « خيرية » لدراسة التصوف ، أو الشعر ، أو الفن ، أما الطب فما خطر لاحدانا على بال ..

* * *

وأتيح لي من بعد ذاك أن أسافر الى العاصمة ، فالتمست فور وصولي اليها ، زميلة حداثتي ورفيقة صباي ، واذ كنت أجهل محل اقامتها ، فقد عهدت الى طبيب من معارفنا أن يبحث لي عنها بين طالبات كلية الطب ، ورجوته أن يدع لها رسالة تحمل عنوان المنزل الذي أقيم فيه .

ولم يمض يوم واحد ، حتى كانت « خيرية » تقف ببابى مستأذنة فى الدخول .

وألجمتنى دهشة المباغتة ، فرحت أحدق فيها مأخوذة ، لعلى ألمح ما طرأ على شخصيتها من جديد ، ويا ما كان أشد عجبى حين لم ألمح عليها أى أثر من تغيير أو تبديل ! كانت هى هى ، على العهد بها ، رقيقة وديعة ، ساجية الطرف ، حالمة النظرات !

وأقبلت عليها أعانقها فى شوق مستثار ، وكأنما عثرت فيها فجأة ، على صديقة عزيزة غالية ، خلت أنى فقدتها من زمان .

وسألتها عما فعلت بها الأيام ، فتأملتنى برهة ثم أجابت بصوت حافل بالشجن :

ــ كما ترين ..

قلت وأنا أعاود النظر اليها :

ــ ما أراك تغيرت عما كنت يوم فارقتنا منذ ثلاث سنين ؟

فهزت رأسها فى ريبة وأسى ، ثم سألت :

ــ وماذا عن دخولى كلية الطب ؟ أو ما يكفيك هذا برهانا على ما أصابنى من تغير ؟

أجبت غير مترددة :

ــ ذلك ما لم ينقض منه عجبنا منذ سمعنا به ، فأى دافع أغراك بهذا النوع من الدراسة وقد كنت من بيننا ، آخر من تصلح لها ؟!

فلم تزد على أن قالت فى اطراقة واجمة :

ــ أمى !

واذ بدا على ملامحى أنى لا أفهم ماذا تعنى ، استطردت قائلة :

« كانت كما تعلمين تشكو ضيقا فى النفس لم يلبث أن تطور الى ربو حاد ، وقد نصح لها الطبيب المعالج بالانتقال من جو دمياط الساحلى الرطب ، فنزحنا الى العاصمة على رجاء أن يفلح جفاف الجو فى تخفيف حدة الأزمات الخانقة التى كانت تعتريها من آن الى آن ، لكن هجرتنا لم تأت بأثر ذى بال ، وان بقى لأمى مع ذلك من ايمانها ، ما يعصمها من محنة اليأس ويغريها بمزيد من التجلد والاحتمال ، حتى وقعت الكارثة التى حطمتها تحطيما ، وان لم تنلها راحة الموت !

لقد وقع أبى فى شباك ممرضة شابة لعوب ، كانت تتردد على بيتنا فى وقت الحاجة ، واذ أدركت بخبرتها ما يعانى أبى من ضجر وضيق وكرب ، رغم الذى يبديه من تصبر ويتكلفه من تلطف ، راحت تغريه بأن ينجو من هذا الجو الكئيب المدمر للحيوية المتلف للأعصاب ..

واستجاب لها بعد أن قاوم أمدا ، وتركنا وحيدتين للغرابة والمرض والقهر ، وتلاحقت أزمات الربو وازدادت ضراوة وعنفا ، بحيث لم تكن تدع المسكينة الا بعد أن تستنفد قواها وتفنى احتمالها .

وكنت اذ ذاك قد شارفت نهاية المرحلة الثانوية ، وتهيأت للامتحان فى شعبة الآداب ، ومن عجب أنى نجحت ، وقد كنت أعيش فى جحيم من التمزق والحسرة والعذاب !

كنت أغادر أمى فى الصباح الى المدرسة ، حيث أمضى ساعات الدراسة وأنا فريسة خاطر رهيب ، لا يفتأ يساورنى ويلقى فى روعى أننى لن ألبث أن أعود الى البيت ، فأجد أمى قد اختنقت باحدى نوباتها ، ورحلت بلا وداع !

وأعود الى البيت فأراها تصارع الموت وتتشبث بالحياة من أجلى ، ويمضى الليل وهى فى صراعها الأليم ، وأنا الى جانبها ساهرة أشهد عذابها دون أن أملك لها شيئا !

ثم تجلى الله لى بغتة فى حلك الظلمة ، فألهمنى أن أدرس الطب لعلى أستطيع أن أخلص أمى من براثن هذا الوحش الضارى . وما خطرت لى هذه الفكرة ، حتى تعلقت بها أبتغى النجاة ، ووجدت فى مجرد الاشتغال بها ، راحة لم أذق مثلها منذ ودعت مهد الصبا وصواحب الحداثة ..

وأصبحت ألتمس الطريق ، دون أن يثنينى عما اعتزمت ، قول المرتابين من حولى : « وهل تبلغين ما أعيا نطس الأطباء ؟ » ، بل كان جوابى الذى لم يتغير : « لكنى ابنتها ، وهم ليسوا كذلك » ..

وأمدنى الله بعونه ، وبث قوة جديدة فى كيانى المتداعى ، فنهضت أستعد للامتحان فى شعبة العلوم ، واجتزته بتفوق أتاح لى دخول كلية الطب .

ومن بعده اجتزت امتحانا أشق وأعسر ، اذ كان علىّ أن أسيغ لمس الأشلاء ورؤية الجراح ، وأن أروض نفسى على احتمال

سماع أنين المرضى وصراخ المعذبين ، وقد صمدت للتجربة الرهيبة حتى اجتزت ذلك الامتحان أيضا ، وهأنت ذى ترينني ماضية فى الطريق الذى ظننت أنى لن أسلكه ، فهل فهمت الآن ما غاب عنك من أمرى ؟ » .

أجبت وعينى الى السماء :

— أجل ، ولتحرسك عناية الله ..

* * *

وافترقنا للمرة الثانية ، ورجعت الى بلدى أحمل الى الزميلات ما علمت من خبر « خيرية » وأزهو بما كشفت من سرها ، لكن القدر سبقنى اليهن بنبأ فاجع ، فان الموت لم يمهل الأم المريضة حتى تتم ابنتها الدراسة وتدخل معركتها المرتقبة .

وقد لبثت أشهرا ذات عدد ، أرقب صاحبتى على البعد وأتلمس أنباءها ، وما أرتاب فى أنها سوف تكفر بالطب وتنسحب من الميدان ، بعد أن ذهبت المريضة التى كانت موضع أملها وهدف كفاحها . لكنى علمت — بعد فترة انتظار مشحون بالقلق والهم — أن الفتاة تابعت دراستها فى ارادة مصممة على النجاح ، واصرار عنيد على قهر العدو الذى سلبها من كانت لها سر الوجود وجمال الحياة !

وقيل فيما قيل ، انها نذرت نفسها لانقاذ مرضى الربو ، وعاهدت فقيدتها الغالية ، قبل أن يواريها الثرى ، لتفعلن المستحيل، حتى يتم لها النصر أو تهلك دونه .

وهكذا تعلقت ارادتها بهذا الهدف ، فلم أعجب لما سمعت

من خبر نجاحها الباهر ، ولا أدهشنى أن تشد رحالها الى الغرب كيما تستكمل تخصصها فى علاج الربو المستعصى ، وتتزود بآخر ما وصلت اليه جهود العقل الانسانى فى هذا المجال .

ومضت أعوام خمسة ، كنت أتتبع فيها خطواتها الظافرة نحو الغاية ، وأتلقى منها بين حين وحين ، رسائل قصارا تفيض حيوية وأملا ، وتسألنى أن أحج الى مثوى أمها الحبيبة ، لأجدد عنها العهد ، وأبشرها بقرب النصر .

وبدا لى أنها نسيت محنتها الأولى فى هذه المعركة النبيلة التى نذرت لها نفسها ، فكان هذا النسيان عندى آية من آيات رحمة الله الذى هيأ لها أسباب الأمل فى مدلهم الظلمات ، حين ظننا ألا نجاة !

* * *

وآن لها أخيرا أن تعود الى الوطن ، لكنها تمهلت فى الطريق ريثما تحضر مؤتمرا عالميا فى الطب ، دعيت للمشاركة فيه ، وأرهفنا هنا أسماعنا لنصغى الى ما ينتظرها من ترحيب حار ومجد باهر ، فاذا بأسلاك البرق تحمل الينا بدلا من ذلك ، نبأ مصرعها الفاجع فى حادث سيارة ، وهى فى طريقها الى القمة ! ..

وكانت نهاية المطاف أن حملوا حطامها الممزق وأشلاءها المبعثرة الى ثرى الوطن ، حيث أودعوها فى رفق الى جانب ما بقى من رفات أمها ، ثم نفضت الدنيا منها يديها ، بعد أن هالت عليها أكواما من تراب !

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

من كتب المؤلفة

ا ـ دراسات أدبية

الناشر

١ — رسالة الغفران ... نص محقق ... ... دار المعارف

٢ — الغفران ... ... دراسة نقدية ... ... » »

٣ — الحياة الإنسانية عند أبى العلاء ... ... » »

٤ — الخنساء ... ... دراسة نقدية ... ... » »

٥ — أرض المعجزات ... رحلة فى جزيرة العرب ... ... » »

٦ — بطلة كربلاء ... ... دراسة أدبية فى التاريخ الإسلامى ... دار الهلال

٧ — نساء النبى ... ... » » » » » ... » »

٨ — سكينة بنت الحسين ... » » » » ... » »

٩ — أم النبى ... ... » » » » ... الشركة العربية

١٠ — بنات النبى .. ... » » » » ... » »

ب ـ دراسات اجتماعية

١١ — الريف المصرى .. .. مكتبة الوفد

١٢ — قضية الفلاح ... ... مكتبة النهضة المصرية

ج ـ قصص

١٣ — رجعة فرعون .. ... قصة مصرية ... ... دار المعارف

١٤ — سر الشاطىء .. ... قصص مصرية .. ... الكتاب الذهبى — نادى القصة

١٥ — امرأة خاطئة ... ... مأساة ريفية ... ... الكتاب الفضى — الشركة العربية

١٦ — صور من حياتهن ... ... الشركة العربية